إسلام "جارودي"

بين الحقيقة والافتراء

دكتور
مصطفى حلمي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة



دار الدعوة

إسلام "جارودي"

بين الحقيقة والافتراء

الطبعة الأولي
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع القـــــانونى
٩٦ / ٥٩٤٩

الترقيم الدولي: 977-253-109-7

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

المركز الرئيسي :٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - ٤٩٠٧٩٩٨ فاكس: ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة: ٣٨٣٢٧٤٧

«إسلام» جارودي

بين الحقيقة والافتراء

دكتور
مصطفى حلمي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب ٦٩-٧١]

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . وبعد ، ،

فقد تعرفنا على رجاء جارودى الذى أعلن إسلامه عام ١٩٨٢م حيث قوبل بحفاوة بالغة تليق بمكانته كفيلسوف نابغ أطبقت شهرته الآفاق (واعتبر إسلامه شموخاً فكرياً للربع الأخير من هذا القرن العشرين [1]) وأصبح علماً على شجاعة الرأى ونزاهة القصد فاتخذنا من آرائه سنداً فى دراستنا النقدية للفلسفة[2] والحضارة الغربية إذ يجد الباحثون عن الحق عند جارودى إجابات عن تساؤلات كثيرة ، وتصحيحاً لمفاهيم نشأنا عليها بسبب نظم التعليم وأجهزة الإعلام ومؤلفات أغلب المستشرقين الذين لا يتوخون الأمانة العلمية .

وعندما تابعنا آراءه قبل الافتراءات التى نُسبت إليه هذا العام ـ تحفظنا إزاء بعض آرائه التى لا نوافق عليها وفى مقدمتها (وحدة الأديان) ونظرته للسلفية فى الإسلام.

ثم صدمتنا الأنباء التى سمعناها والمقالات التى قرأناها ، وكانت الصدمة أشد ألما فى النفس بسبب ما أشيع عنه بالطعن فى السنّه والنيْل من الأئمة الفقهاء .

كان صدى الألم شديداً فى النفس ثم تذكرنا الآية الكريمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]. عندئذ قلّبنا الأمر على أكثر من وجه ، ثم قلنا : كفانا من الرجل أنه عثر فى دين الإسلام على حل لمعضلات العالم ، وأصبح ديناً فى عنق علمائنا مخاطبته بالأسلوب الذى يتناسب مع ثقافته وفلسفته الغربية التى ربما لم يستطع التخلص منها تماماً بحكم ماضيه الدينى والثقافى وهو أمر طبيعى ومتوقع .

---

(١) د: عبد القادر محمود ص ١٣٦ ..[المشكاه (مجموعة مقالات مهداه إلي اسم الدكتور: علي سامي النشار طبع دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية . ١٩٨٥م.

(٢) ينظر كتابنا (الإسلام والمذاهب الفلسفية) ط دار الدعوة ـ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

ثم أثلج صدورنا قيامه بنفى الاتهامات المنسوبة إليه حيث قال فى رسالته الموجهة إلى جريدة (الشعب) القاهرية :

« ينتقدون ويؤاخذون بافتراء على أننى أزرع الشك بحق أبى حنيفة والشافعى فى حين أننى أقدمهما بشكل خاص كمثال يحتذى فى جميع كتبى ومقالاتى . . . »

وقال أيضاً بشأن إشاعة رفضه السنّة :

« يتهموننى برفض السنة ، وهذه كذبة أخرى لأننى ألومهم على الاستخدام السياسى للسنة »(1)

ثم اتضح أن الحملة ضدة تتصل بالمحاكمة التى يتعرض لها للمرة الثانية ضمن حملة صهيونية تتهمه بالعداء للسامية بسبب صدور كتابه الأخير (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) (2).

وهكذا ظهر المكنون ، وافتضح المستور ، فإن حقيقة الأمر هى إثارة زوبعة حول الرجل بحملات إعلامية كاذبة لحصار الرجل وتنفير المسلمين منه ليخسر التأييد المعنوى والتجاوب الإيمانى ، فيسهل التخلص منه بهدوء ، ومن ثم تفقد الأمة الإسلامية حينئذ نصيراً مخلصاً لأهم قضاياها (فلسطين) فى قلب أوروبا.

أما نحن، فقد قابلنا إسلامه بالحفاوة المناسبة وكتبنا عن تحوله العقائدى الفلسفى،آملين إقناع بعض بنى قومنا المقنعين بحضارة الغرب وثقافته الاقتداء به، فقد تبين لنا رؤية جارودى العامة للإسلام حينذاك صحيحة ، إذ عندما تكلم عن العقيدة قال :

[لابد أن تكون رؤيتنا للإسلام عبر القرآن والسنة النبوية ، فهذا الدين ينبذ الازدواجية المزيفة فى شئون السياسة والعقيدة والمسجد والدولة .

ولا شك أن فى مقدرة الإسلام السيطرة على الأزمة الحضارية والإنحلال فى المجتمع الغربى بفضل تشبثه بوحدانية الخالق وبوحدة العقيدة والعمل فهو

---

(1) ينظر ملحق رقم (1) بالكتاب ص99.

(2) صدرت ترجمته العربية بواسطة دار الغد العربي القاهرة - يونيو سنة 1996م.

حامل لعوامل الجهاد ضد الاستلاب الاستعمارى ، وقد نجح فعلاً فى بث روح الجهـاد فى نفوس الجزائريين بالأمس ويـدفع اليوم المجاهدين من الأفـغان إلى التضحية بكل نفيس[1]].

ويتـضح إخلاص فـيلسوفنا من تحـديد موقـفه منذ بداية إسـلامه إذ سـأله أصدقاؤه ومـحبوه الأوربيون : « كيف تخـرج على (الغرب) وأنت واحد من أهم المفكرين فيـه ؟! إنك بذلك (تغامر) بخسارة رصـيدك من حب الملايين ! وكـان رده جاهـزاً : أنا لا يهمـنى حب الملايين وإنما يعنينى أن أكـون إنسـاناً صادقاً مع الله)[2] .

* * *

ولكن فى ضـوء الحكمة (الحق أحبّ إليـنا) فإننا لا نوافق جـارودى على فكرته عن الدين الإبراهيمى ، أو وحـدة الأديان بالشكل الذى اقترحـه ونفذه ظناً أنه بذلك حل مشكـلات الخلافات بين الأديان متـجاهلاً الحروب الدامـية والتاريخ الطويل من حملات التنصير التى يدعمها الفاتيكان وحكومات الغرب طوال القرون ! [3]

وكان الموضوع مـطروحاً منذ سنوات ، ولعل الشيخ «محـمد أبو زهره» هو أول من وضع الاقتراحات من منظور إسلامى صحيح ـ كما سنرى ـ فميز بين القضايا الدينية التى لا تُناقش وما سواهـا ، ودعا إلى التنسيق فيما بين الأديان فى القضايا المتفق عـليها، كذلك لم يكن فيلسوفنا موفـقاً فى ظنه الخاطئ عن السلفـية فى الإسلام كـما عـرفها بـكتابه (**أصول الأصوليات والتـعصبات السلفية**)، بينما هى بوضـعها العلمى الصـحيح ـ كما سنشـرح ـ منهج ودعوة لتذكير الأمة الإسلامية بالعقائد والمثل العليا القويمة التى تحققت بالفعل ،ويمكن تحقـيقـها من جـديد لو نهجنـا منهج السلف . وهذا ما أدّى بنا إلى مـواصلة الحديث عن جارودى وآرائه بين مدح وقدح ، آملين تحقيق أهداف ثلاثة :ـ

(١) لماذا أسلمت ؟ ص ٩١ دراسـة أعدها مـحمد عـثمـان الخشت مكتـبة القرآن بالـقاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.

(٢) مقال الأستاذ أحمد سليمان بعنوان (الرجل موقف) ـ جريدة الأحرار القاهرية ـ ٥/٥/٩٦ م.

(٣) مما دفع بباحث إلى الاهتمام بهذه الظاهرة ، فألف كتاباً بعنوان [صليبية إلى الأبد] !

١ـ أن نخاطب من واقع آرائه الناقدة لحضارة الغرب بنى جلدتنا من المستغربين مسترشدين بقوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ . وتصبح الحجج أكثر إقناعاً لأنها صادرة من فيلسوف نابغ مثله شرب من كأس حضارته حتى الثمالة ، وجاس خلال مذاهبها من الماركسية إلى الوجودية إلى البنيوية ، مع سابق إيمانه بالمسيحية .

٢ـ ندعوه لتصحيح مفاهيمه ومن ورائه قرائه ومحبّيه بالحكمة والموعظة الحسنة ، لنظفر به لصالح الصحوة الإسلامية بين الأوربيين الذين تلقّوا معلوماتهم المغلوطة عن الإسلام بواسطة فريق من المستشرقين ، كان دأبهم تشويه صورته بافتراءات وأكاذيب وحيل شيطانية كما أثبت ذلك العلامة الدكتور عبد الرحمن بدوى بكتابيه اللذين صدرا أخيراً بباريس:

(الدفاع عن القرآن) و(الدفاع عن محمد ﷺ) (١)

٣ ـ إبراز المنهج الصحيح لفهم الإسلام وتطبيقه ، وهو منهج السنه والسلف الصالح ومن تبعهم الذى وُجِّهت إليه الطعنات ـ لا بسبب العداء للإسلام نفسه فحسب ـ بل بسبب تقصيرنا نحن أيضاً فى عرضه وتقديمه بأدلته وبراهينه، وبالمفاهيم المناسبة لأهل العصر ، وقد أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم .

لذلك قدّمنا (السلفية) فى قالب الموازنة بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية :تصوراً وتاريخاً وحضارة .

كما وضعنا المادة العلمية الخاصة بمسائل الألوهية والعالم والإنسان فى إطار

---

(١)الدكتور أحمد عبد الحليم عطية :

ويحدد لنا بدوي مهمته في مقدمة كتابه « الدفاع عن محمد ﷺ بأنها كشف زيف كتابات المستشرقين التي لا تنفك تردد اتهامات قديمة للإسلام . ويقول د. بدوي (بالخوض في تاريخ مفاهيم الأوربيين عبر العصور حول نبي الإسلام محمد ﷺ ـ ذهلت تماماً لشدة جهلهم ، وسوء طويتهم الواضح ، وأوهامهم العتيقة ، وعنادهم وتعبهم المحموم ، وإصرارهم علي الالتزام بالجهل التام فيما يخص أمور خصمهم .. ويستطرد د. أحمد عبد الحليم في مقاله فيكتب (ويظهر في مقدمة كتاب بدوي عن القرآن عدم ثقته في أعمال هؤلاء المستشرقين ، لإصرارهم علي تزييف المشاكل والتصورات والنتائج) ـ ص ٦٢ / ٦٣ من مقالته بعنوان « المماثلة والمقابلة ـ قراءة ثانية في موقف بدوي من المستشرقين«المسلم المعاصر» العدد ٧٩ـ رجب ـ شعبان ـ رمضان ١٤١٦ هـ ـ فبراير ـ مارس ـ إبريل ١٩٩٦م .

مشابه للنسق الفلسفى المتكامل المألوف للعقل الغربى حتى يسهل استيعابه ، لعلنا نقرّب فهم عقائد الإسلام وقيمه من عقول الغربيين والمتأثرين بهم من بنى قومنا الذين أشربوا الثقافة الغربية بروافدها الفلسفية والدينية ، كونأمل أيضاً إزالة شبهةٌ فحواها : أن علماء السنّه والسلف مجرد (نصيين) مقابل (العقليين) من المعتزلةَ الفلاسفة .

وكان اختيارنا لموقف ابن تيمية لأنه يعبر عن المذهب السلفى ، كما امتد أثره إلى أغلب الحركات التجديدية فى العصر الحديث :

هذا وقد احتوى كتابنا بعد المقدمة على أربعة فصول :

الأول: يتضمن إعادة لما كتبناه عند إسلامه واتخذنا من آرائه حينذاك سلاحاً بتّاراً لقطع رأس الأفعى الماركسية التى أفسدت بسمومها عقول شباب المسلمين[1]

ومنه عرفنا أيضاً عدة حقائق عن حضارة العصر كانت خافية علينا ، كما .تبيّن لنا فهمه الصائب لكثير من قيم الإسلام ونظمه وحضارته .

الثاني : عرض بعض آراء جارودى فى ضوء عقائد أهل السنة والجماعة ، فناقشناه فى :

أـ عقيدتة عن الإبراهيمة أو وحدة الأديان .

ب ـ تصوره عن السلفية .

الثالث : قدّمنا فيه (السلفية) فى قالب الموازنة بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية .

الرابع : ويتضمن النسق الإسلامى فى مسائل الألوهية والعالم والإنسان عند ابن تيميه .

ثم ذيلنا الكتاب بثلاثة ملاحق تدور حول الافتراءات الموجهة إلى جارودى.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بالكتاب ، ويجعله خالصاً لوجهه، كما يجعلنا

---

(١) ينظر كتابنا « الإسلام والمذاهب الفلسفية » ط دار الدعوة بالإسكندرية ٥ ١٤هـ ـ ١٩٨٥م

من الداعين إليه - عز وجل - بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلين بالتي هي أحسن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ١٧ صفر سنة ١٤١٧هـ

٥ يوليو سنة ١٩٩٦م

الفصل الأول

كلمة حق

إسلام جارودى : المغزى والمرمى

***

كلمة حق

إننا أمام هذا الحدث المذهل ، إسلام الفيلسوف ذى المكانة العالمية رجاء جارودى سنقف باحثين متأملين ثم نبين المرمى ونتعلم من أبعاده.

إنه فى رأينا يعبر عن « ظاهرة » أو حركة عامة وليس حالة فردية ، بحيث يغنينا عن عشرات الأبحاث والدراسات المبنية على الاسقراء المنطقى الجاف، لأنه أصبح بمثابة ميزان حى قد امتلأت إحدى كفتيه بالفلسفة والتاريخ والحضارات ومقارنة الأديان،ثم أخذ بالكفة الأخرى يضع دراسته لعقيدة الإسلام وتاريخه وحضارته ونظمه فرجحت الثانية،فكانت دقته فى اصدار الحكم.

ومما يؤكد نزاهته واخلاصه انه لا يبغى عرضاً من اشهار اسلامه، فقد أعطى الشهرة والمجد والمكانة العالمية، بل ربما كان اسلامه سبباً فى تعرضه لكثير من الأزمات والصعوبات، وقد حدث ذلك بالفعل، مما يدلنا أيضاً على شجاعته الناجمة عن الإيمان واليقين الذى لا يتزعزع.

إن جارودى أعلن الإسلام دون أن يخشى فى الحق لومة لائم، وهو فى بلد تسيطر عليه تيارات عدائية للاسلام، وحوكم بسبب ما وصف «بالعداء للسامية» ولكن الله تعالى نصره وشد من أزره.

وكان الرجل قد خاض ثقافة وسلوكاً تجارب البشرية المعاصرة الباحثة عن الحياة الطيبة، فكافح مع الشيوعية،ظناً منه أن المذهب الماركسى سيؤدى إلى تحقيق العدالة والسعادة،ولكنه تخلى عنها عندما اصيب بخيبة أمل فى المذهب وتطبيقاته.

ويمتاز جارودى بأن فلسفته ليست نتاج العكوف فى الأبراج العاجية والبحث عن الثقافة للثقافة أو العلم للعلم ، ولكنها نتاج معاناة ومعايشة للأحداث ، فقد أرقته مآسى العالم المعاصر كله ، ونغّص حياته رؤية الشباب الرافض للحياة فى الغرب وهو فى سن الزهور المتفتحة لها ، ومآسى الشعوب فيما يسمى بـ « العالم الثالث »[1] التى خربت أراضيها ونهبت ثراوتها من

(١) اورد جارودي بالتفصيل ما تعرضت له هذه الشعوب أيام الاستعمار من عمليات تخريب علي =

رخاء المجتمعات « المتحضرة » وتشبع جشعها، وكانت المأساة بالنسبة للعالم الإسلامى أشد وأقسى حيث تعرضت «ثقافته» الممثّلة فى الإسلام وعقيدته ونظمه إلى حملة اقتلاع من الجذور وتعرضه للغزو الثقافى الغربى المنظم.

ورأى فليسوفنا المسلم أن العلم « الغربى » الذى كان الأمل فيه تحقيق السعادة والرفاهية للبشرية، أصبح مهدداً للعالم بكوارث الإفناء إما بحروب الكواكب والقنابل الهيدروجينية أو بالتلوث المسمم للأجواء. فهل من حل؟

يرى جارودى أن الحل ممكن فيما سماه بـ «حوار الحضارات» حيث يجب على الغرب أن يتنازل عن اعتقاده بأنه مركز العالم ، وأن يتخلى عن النظرة العنصرية لغيره من الشعوب والحضارات[1]

=الصعيدين الثقافي والاقتصادي: فعلي الصعيد الثقافي (كان الشغل الشاغل للمستعمر هو أن يقوض ثقة الشعوب المستعمره بنفسها ، لقد سعي جاهداً ليدمر اعتزاز الشعوب بماضيها) من محاضرته بالقاهرة -مجلة الطليعة المصرية ص ١٣٩ وعلي الصعيد الاقتصادي يذكر أن الثورة الخضراء - الزراعية نجحت في آسيا في زيادة محصول الارز ، ثم جاءت أوربا بالتكنولوجيا بحراثة الأرض فانطمرت التربة السطحية الخصبة وقطعت أشجار الغابات ، وفي تطوير زراعة المحصول الواحد أدي إلي تعرية سفوح جبال الهملايا وفيضانات ببنجلادش ومجاعات ساحل العاج . ص ١١٥ من كتابه (ما يعد به الإسلام)

(١) في نص مختار من كتابه (حوار الحضارات) يقول جارودي: إن خلق مستقبل حقيقي يقتضي أن تستعاد جميع أبعاد الانسان التي طورتها الحضارات والثقافات غير الغربية.
فعن طريق (حوار الحضارات) هذا يمكن أن يري النور مشروع كوني لاختراع المستقبل . اختراع مستقبل الجميع من قبل الجميع.
ان (حوار الحضارات) هذا هو أمر ضروري علي الصعيد الاقتصادي لمسألة نقدية ولتغيير جذري لنموذج النمو ولاكتشاف غائيات أخري للتنمية وتعريف آخر للتطور وهو يساعدنا علي الصعيد السياسي علي أن نتصور وأن نعد للانتقال من ديمقراطية تمثلية إلي ديمقراطية تشاركية -وأن نحل محل التصور الاداتي والاحادي البعد للسياسة تصوراً يلزم الانسان بكليته ويكون فيه فعله الخارجي تعبيراً عن إيمانه الداخلي ان (حوار الحضارات) هذا يحارب العزلة الداعية (للأنا الصغير) ويشدد علي الماهية الحقيقة للأنا الذي هو أولا علاقة بالآخر وعلاقة بالكل . وعلي هذا النحو يساعدنا علي صعيد الثقافة علي الانفتاح علي آفاق بلا نهاية ، وعلي حرية جديدة هي تلك التي تؤسس ذاتها علي أولوية الشعر والخلق وليس فقط علي المشروع التقني والمفهوم المجرد ان نضع موضع مساءلة نموذجا للنمو أعمي وبلا غاية انسانية ، نموذجاً معياره الأوحد زيادكمية غير منقطعة للانتاج والاستهلاك ، ان نطلب بسياسة لا تكون بعد الآن بنت نظام الوسائل وحده بل أيضاً بنت نظام الغايات ، سياسة يكون موضوعها ومعيارها وأساسها التفكر في غايات المجتمع ، ومشاركة كل فرد بدون استلاب سلطوي في البحث عن تلك الغايات وفي تحقيقها، ان نكشف ذلك البعد الجديد للإيمان بالسياسة والثقافة ، ذلك الاختيار لحرية قوامها مشاركة كل واحد في الفعل الخلاق . ذلك هو (حوار=
=الحضارات) الذي يمكن أن نتخاطب فيه - بالتبادل ، وفي حوار ينفتح فيه كل واحد علي حقيقة الآخر بدون أن يختزل نفسه إليها - حكمة آسيا والاسلام وافريقيا وامريكا اللاتينية وثوراتها علي قدم المساواة مع حكمة الغرب وثوراته.

إن اسلام جارودى قد أحدث ثورة على المستوى العقائدى ، كما أحدث ثورة على المستوى الثقافى[1]

ونعنى بالأولى شجاعته فى اقتحام علم مقارنة الأديان بحيث لم تسبب له عقيدته السابقة أية حساسية لأن يبحث عن الحق باخلاص وتجرد.

أما الثورة على المستوى الثقافى، فقد عكس طرفى الاتصال بين (التراث)و(العصرية).

فبعد أن كانت كالأرجوحة تميل بجانب (العصرية)وظلت مناهجنا تنظر إلى التراث الإسلامى من الموقع التغريبى ، فقد قلب جارودى الميزان ، وقادنا إلى رؤية العصر من خلال التراث الإسلامى.

لقدبهرنا من خلال كتبه ومحاضراته بفهمه الصحيح ـ العميق ـ لقيم الإسلام وتاريخه وحضارته ونظمه.

وكلما مضينا معه لنعرج مع أفكاره ازددنا انبهاراً للحقائق التى كانت خافية علينا فى تراث الغرب وتاريخه، والأمراض الفتاكة التى تسرى فى كيان الحضارة الغربية .

انه كسر الطوق الذى كان يكبل الفكر الغربى عامة والفكر الاستشراقى بوجه خاص ، فقد كان هذا الفكر مكبلاً بأغلال التعصب والجهل معاً.

ان بعض هؤلاء المستشرقين لم يعرفوا الإسلام فى مصادره ولم يطلعوا على تاريخه من منابع مؤرخيه المؤتمنين عليه ، بل اكتفوا بالاطلاع على شذرات من ترجمات مشوهة أو مصادر لا تسلم من الضعف أو الحشو بالأكاذيب أو اتجاهات عدائية مذهبية.

كما حجب رؤيتهم حائل كثيف ، يتمثل فى أوضاع المسلمين المعاصرة الثقافية والسياسية ، و أحوالهم المتردية فى العلوم والصناعات ، والمستوى

---

(١) كتب الأستاذ أحمد بهجت يقول (إن قصة حياة هذا المفكر العظيم تصلح هدية موحية لأبناء الشرق المهزومين روحياً أمام الغرب).

الأهرام في ١٣/ ٣/ ١٩٨٣ ووصفه الأستاذ أحمد بهاء الدين بأنه (اكبر مفكر فرنسي معاصر) (الأهرام في ١١/ ١/ ١٩٨٣ ووصفه الأستاذ كامل زهيري في من مسكانة برتراند رسل وسارتر وأندريه جيد وبرناردشو واعتبره (أكبر فيلسوف في الغرب الآن) (الجمهورية في١١/ ٣/ ١٩٨٣ .

(اللاحضارى) ، المتدهور[1] بسبب بعدهم عن الإسلام من ناحية، وبسبب الغزو الاستعمارى الشديد الوطأة بجناحيه العسكري والثقافى الذى كان يبغى القضاء على (الشخصية الإسلامية) ومحوها وتفريغها من عقيدتها وحرمانها من شريعتها لكى تتحول إلى مسخ مشوه لا هو شرقى إسلامى ولا هو غربى أوربى ، وقد كادت فرنسا تنجح فى تحقيق مآربها فى شمال أفريقيا (الجزائر والمغرب وتونس) لولا فضل الله تعالى ، ثم المقاومة الباسلة التى لم تكل ولم تفتر بقيادة أمثال الأمير عبد القادر وعبد الحميد بن باديس وغيرهما .

ولعل روح المقاومة هذه هى التى لفتت نظر جارودى فأحس بأن أمثال هؤلاء يعبرون عن (روح)الأمة التى لا تموت بالرغم من الطعنات القاتلة التى صوبت إليها[2].

إنها ثورة ثقافية حقيقية لأنه لا يصحح مسارات الفلاسفة والمثقفين الأوربيين فحسب ، بل يصحح رؤيتنا نحن أيضاً إلى حضارة الغرب وقيمه إذ يجب أن نعترف بأن الكثير منا تأثروا بالثقافة الغربية ، وأخذوا ينظرون إلى التراث الإسلامى بمنظار غربى ، فحجب عنهم الرؤية الصحيحة لدينهم ومعرفة قدر أمتهم وحضارتهم كما يجب.

فهل لنا التعلم منه والإفادة من خبراته فى مجال (الثقافة)والكفاح من أجل سعادة البشرية؟

سنحاول مستعينين بالله تعالى على خوض هذه التجربة فى صحبة أفكاره الممتعة،وإن كنا نعترف بالتقصير فى حق الرجل لأننا مهما حاولنا فلن نستطيع التعبير المتكامل عن فلسفته ، ولكن يكفينا الاشارات والتقاط بعض الجواهر من آرائه ، ومحاولتنا لا تغنى عن نصح القارئ بالرجوع إلى كتبه نفسها .

---

(١) وما أشد فطنته في اجابته علي من يسأله بسخرية: اين هو هذا الإسلام الذي تجعلونه مثالياً علي الخريطة؟ أجاب بقوله: تجرأوا وضعوا أصبعكم علي خارطة العالم لتبينوا لي أين هو المجتمع المسيحي؟ أو المجتمع الاشتراكي؟ ليست غايتي الدخول في حرب كلامية للمقارنة بين ما حققه هؤلاء وما حققه الأخرون رغم أنه بحسب ترتيب المسئوليات والمآسي من الحروب الصليبية حتي الاستعمار ، ومن بعبع الاستغلال إلي المبادلات اللامتكافئة المسببة للمجاعات . لا يجوز للحضارة الغربية والمسيحية أن تدعي أنها لعبت دور القاضي أو مدرس الأخلاق الحميدة .»جارودي. الإسلام دين المستقبل ص٧٠.»

(٢) انه يعلل حركات المقاومة للاحتلال العسكري بدافع العقيدة الإسلامية لا العاطفة الوطنية

○ حياته وأطوار فلسفته:

لا يعتبر جارودى تحوله إلى الإسلام نقـله مفاجئة من الإلحاد إلى الإيمان ، لأنه حتى عندما كـان عضواً فى اللجنة المركزية للحزب الشـيوعى الفرنسى فى عام١٩٣٣ ، كـان فى الوقت نفسـه رئيس الشبان المسـيحيـين البروتسـتانت ، وانتسب للحزب الشيوعى كمسيحى .

أما كيف يوفق بين الماركـسية والنصرانية ؟ فإنه يفسـر ذلك إما نظرياً حسب القول بأن الشـيوعية إنجـاز نصرانى لمعالجـة القضيـة الاقتصادية ، أو بأسـباب خارجية مستعلقة بظروف الفترة التى عاصرهـا آنذاك حيث عانت أوربا من أزمة اقتصادية كبيرة من سنة ١٩٣٣م إلى سنة ١٩٣٩م وفيها أيضاً ارتفع نجم هتلر .

ولما كان أبواه ملحدين ، فإن اعتناقه للنصرانية تم باختياره وبرغبته .

وهذه اللمحة تعطينا فكرة عن طبـيعة الرجل العقلية وخصـاله الأخلاقية . أى بحثه عن الحـقيقة مع أمله فى المـشاركة فى حلول للأزمات الإنسـانية وقد ظلت هذه الخصال معه بعد ذلك طوال حيـاته مما يؤكد أن سفينته عندما رست على بر الإسلام، فإنما كان وراءها يمـسك بشراعها ويحرك دفتها برغـبة عارمة للبحث عن الحق .

يقول فى وصفه لتلك الفترة من حياته (وشهدت اختيارى الأول ـ وكنت فى هذه المرحلة لا أزال طالباً ـ ويرجع السبب فى اختيارى النصرانية إلى رغبتى فى أن أعطى لحيـاتى معنى فى وقت كنا نعـتقد ـ لشـدة الأزمة ـ أننا نعـيش نهاية العالـم ، أما الشيـوعية فقد كانت الاختيـار الوحيد الذى يطرح بديلاً للخروج من أزمة الرأسماليـة ، كما أنه كانت أفضل جبـهة تقاوم هتلر والنازية فى هذه الفترة . . وفى فرنسا ـ على سبيل المثال ـ كان معظم المشتغلين بالكتابة والفنون وأساتذة الجامعات ، وحائزى جائزة نوبل : إما أعضاء فى الحزب الشيوعى أو أصدقاء للشيوعيين. وذلك بسبب الحالة السيئة التى نشأت عن أزمة الرأسمالية وتيار المقاومة لنازية هتلر)[1] .

أما الإجابة عن السؤال لماذا أسلم ؟ فإنه يقتضى استرجاع الحلقات الهامة فى تاريخ حيـاته ، حيث يروى لنا جارودى ـ أنه فى النضال ضـد هتلر كلفه هذا

(١) حديثه مع مندوب مجلة (الأمة) القطرية ص٦٦/٦٧ـ جمادي الأولي ١٤٠٣هـ فبراير سنة ١٩٨٣م.

الاختيار ثلاث سنوات من السجن والاعتقال بالمعسكرات ، وقد قبض عليه فى سبتمبر سنة ١٩٤٠م بسبب جهوده من أجل النهضة الفرنسية بعد الحرب ومعارضة الحروب الاستعمارية . وقد فضل الانخراط فى سلك المقاومة متعرضاً للاعتقال بدلاً من الاختيار السلبى المضاد الذى اختاره آخرون بحيث اكتفوا بعكس فوضى العصر على فلسفاتهم وسلوكياتهم استنتاجاً أن الحياة ليست لها معنى أو كما قال سارتر (الحياة عاطفة غير مفيدة) .

وقد مر أن جارودى كان مقتنعاً بأنه يمكن الجمع بين المسيحية والماركسية في الحلقة الأولى من حياته: وحيث وجد اتجاهاً فى حياته والتاريخ موزعاً بين الإيمان الإبراهيمى والرسالة المسيحية ولكن فى غياب مذهب اجتماعى مسيحى معتبر وسياسة مسيحية تسمح بالنضال ضد الفوضى ، أخذ يبحث عنه فى الماركسية حيث وجد فيها منهجية لمبادرة تاريخية من أجل مشروع قادر على التغلب على التناقضات القاتلة للنظام الرأسمالى المنافس ، وكان الحزب الشيوعى الفرنسى المنافس الأكثر تصميماً للرأسمالية والنازية .

ولكن هذا الجمع فى عقيدته بين المسيحية والماركسية لقى امتحاناً عسيراً على ضوء الأحداث فى أوروبا ، حيث انكشف منذ المؤتمر العشرين للحزب السوفيتى وحتى غزو براغ عام ١٩٥٦م أن الاتحاد السوفيتى ليس هو الاشتراكية، كما انكشف عن طريق المجمع الكنسى ، أن الكنيسة لم تحقق الأمل الكبير فى تحديث الدين كما قرر البابا جون الثالث والعشرون .

ثم وعى بعد ذلك ـ مع دوم ثيلدر كامارا ومع حفنة من المسيحيين والمناضلين وبخاصة فى العالم الثالث ـ أن النموذج الغربى للنمو الاقتصادى كان أكثر خطورة بنجاحاته من اخفاقاته . وكان ذلك فى عام ١٩٦٨م.

وفى عام ١٩٤٧م حوّل الحوار المسيحى ـ الماركسى الذى رأى أنه أصبح إقليمياً فحّوله إلى حوار حضارات . يقول جاوردى (مشاكلنا كونية ، ولا يمكن حلها إلا على مستوى كونى ، متفحصين حكم الديانات الثلاث ، المستعمرة والمغربة لفترة طويلة لندرك ونعيش علاقات أخرى بين الإنسان والله ـ تعالى ـ والآخرين ، والطبيعة).

ووعى جارودى عند دراسته للثقافات غير الغربية الامكانيات الخاصة

للإسلام ولم يكن هذا اكتشافاً مفاجئاً لأنه كان متصلاً ببحثه منذ عام ١٩٤٦م عن الحضارة العربية الإسلامية بعد لقاء فاصل مع الشيخ الإبراهيمى .

وهنا يقول جارودى (والآن بدا لى الإسلام مثل حامل إجابة على أسئلة حياتى ، لا سيما على ثلاث نقاط أساسية بالنسبة للوعى النقدى لهذا العصر :

١ـ لم يزعم النبى محمد ﷺ ـ أبداً أنه اختلق ديانة جديدة ، لكنه يدعونا إلى العقيدة الجوهرية لإبراهيم عليه السلام ، فى القرآن موسى والمسيح عليهما السلام نبيان للإسلام .

٢ـ الإسلام لا يفصل بين علم الحكمة وحكمة الوحى . العلم الإسلامى فى ذروته ـ فى جامعة قرطبة ـ لم يفصل البحث فى الإسباب عن البحث فى الغايات . بعبارة أخرى إنه يجيب على السؤال(كيف) والسؤال (لماذا ؟) . بهذه الكيفية يصبح العلم والأسلوب فى خدمة تألق الإنسان ، وليس تحطيمه بإثارة رغباته وإرادة تسلط مجموعات أو قوميات .

وفيما يتعلق بالوحى ، فإنه لا يتعارض لا مع العلم ، ولا مع الحكمة ، لكنه يعينهما على الوعى بحدودهما وبمسلماتهما .

ويعبر جارودى عن ذلك بكلمته البليغة (الإيمان عقل بلا حدود) وبذلك يضع العلاقة بين العقل والدين فى إطارها الصحيح.

٣ـ يسمح الإسلام بوضع مشكلة العلاقات بين العقيدة والسياسة (علاقات بين بعدين للإنسان) دون أن يخلطهما مع العلاقات بين الكنيسة والدولة (علاقات بين مؤسسين) مثلما حدث كثيراً فى أوربا وبخاصه فى فرنسا

وينهى مقاله لمجلة (لوموند) الفرنسية بقوله (هذا هو معنى اختيار عقيدة (التوحيد) وهى فى نفس الوقت علم اخلاق العمل ، لأن الإسلام لا يعنى الطاعة بمعنى الاستسلام ، والجبرية والخضوع (فهذا هو استسلام ، لكنه الاستجابة لنداء الله ـ سبحانه وتعالى ـ استجابة نشطة ، حرة ، ومسئولة وبعيداً عن التهكم والتهديدات ، الوصول ، مثلما كتبت ، إلى الفرح العظيم أن أظل ، بعد سبعين عاماً ، مخلصاً لحلم سنواتى العشرين) [١]

---

(١) مقال بعنوان (لماذا أنا مسلم) بمجلة (لوموند) الفرنسية وترجم إلي العربية ونشر بجريدة (الأخبار) القاهرية بتاريخ ٩/ ٨/ ١٩٨٣ صفحة ٩ (ولم يذكر المترجم اسمه) ويفهم من سياق حديثه أنه تعرض للتهكم والتهديدات بسبب اسلامه "

تصحيح الأحداث التاريخية وتقويمها :

ان جارودى مقتنع بأنه من خلال الحوار فى مقدور الإسلام الأخذ بيد الغرب ليدرك الأبعاد الإنسانية والإلهية التى انشطر الغرب عنها خلال عملية تطوير قدراته للسيطرة على الطبيعة والناس[1] فما هى جذور هذه (المعاناة) ؟

لقد ظهر عصر النهضة لدى الغرب فى إسبانيا المسلمة قبل أن يظهر فى إيطاليا بأربعة قرون ، وكان يمكن لهذه النهضة أن تكون عالمية ، ولكن الغرب رفض (التراث الإسلامى) فحرم على مدى قرون من خصب كل الثقافات الأخرى ، وانزلق إلى أنماط انتحارية فى التنمية والتمدن .

وهكذا فإن ما شاع على أنه اسطورة ومذهب للتقدم قد أدى بالتاريخ إلى مزيد من اللاإنسانية والتقهقر[2]

وبوعى بالتاريخ وحركته ، تأمل جارودى الغزوات الكبيرة طوال القرون الماضية التى لم ينجم عنها إلا مظاهر انحطاط كبرى نتيجة انتصار القوى المتفوقة فى السلاح.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها انتصار روما على اليونان ، والهون والمغول والتتر وجحافل جنكيز خان التى هدمت حضارات الصين من خوارزم إلى بلاد فارس والهند ، بين دلهى وبغداد ، كل أولئك من (مؤسسى الامبراطوريات) لم يحملوا معهم أية رسالة حضارية غنية مستقبلية [3].

هل تختلف الغزوات الاستعمارية الأوروبية عن تلك التى عرفتها البشرية من قبل؟.

إنها لا تختلف فى رأيه عنها ، ولكن اختفت حقيقتها وراء شعارت خادعه وحيل لغويه ، ومثار عجبه بالألفاظ واستعمال الحيل اللغوية لإخفاء حقيقتها

---

(١) جارودي : ما يعد به الإسلام ص ٣٦.

(٢) نفسه ص٣٦/ ٣٧ يشرح ذلك بإفاضه حيث أباد الأوروبيون ملايين الهنود الحمر في أمريكا وخربت افريقيا بانتزاع عشرة ملايين إلي عشرين من سكانها (وهذا يعني أن عدد الضحايا بلغ مائة مليون إلي مائتين إذا كان أسر كل أسير يكلف قتل عشرة أفراد) ثم مذابح آسيا وحرب الأفيون والمجاعات التي فتكت بملايين الهنود وماذا نري في قنبلة هيروشيما الذرية وحرب فيتنام. ينظر ص٣٨ من نفس المصدر وص٢٥٠ حيث أورد جارودي احصائيات مذهلة عن ميزانيات التسلح بينما يعيش نصف مليار من سكان الأرض دون مستوي الفقر المطلق!!

(٣) نفسه ص٣٧.

التى لا تختلف عن الغـزوات العسكرية على مر تاريخ البشـرية حيث توصف (بالبربريه) إذا كانت على يد الأوروبيين . بينما توصف (بالاكتشافات الكبرى) إذا تمت على أيديهم !![1]

ويهمنا فى هذه الخدع اللفظية ـ سواء كانت لتصوير مراحل الحضارة الغربية داخل قارتهـا أو علاقاتها بـغيرها من القارات ـ الحـرص الشديد على متـابعة تراثهم اليونانى والانغلاق داخل تصوراته بغير حاجة إلى اختراع لفظ (الحداثة) كما فعل البـعض منا فى ظل الهزيمة النفسية أمام الحضـارة الغربية إذا ما رأينا ضرورة الحفاظ عـلى تراثنا الإسلامى علماً وعملاً . وبيت القصـيد من الحيل التى لفت نظرنا إليـها جارودى وتـهمنا بصفـة خاصـة ، تلك التى يرى فيـها (الاكتفاء بمفهـوم «المدينة» اليونانية) عوضاً عن القومية حـيث يُعتبر (الآخرون) (برابرة) خلقوا للاسترقاق !!

○ **خلاصة ما حدث إذن نتيجة عاملين :**

أحدهما : شطر العلم عن الحكمة

الثاني: الإخلاص لقيم الحضارة اليونانية وتراث الأجداد [2].

ويكفينا إلقاء بعض الضوء على أفكار هذا الفـيلسوف الذى أخذ على عاتقه مجابهـة تزييف الحقائق . ونحيل القـارئ إلى كتبه التى تحـتوى على كنوز من المعارف التى تصحح (الأفكار العامة التى تحـملها الثقافة الأوروبية المرتبطة إلى الأسانيد الإغريقية ـ اللاتينية واليهودية ـ المسيحية)[3]

---

(١) ويري جارودي أيضاً صور التلاعب بالألفاظ والحيل اللغوية فيما جري من تصوير المراحل التي مرت بهـا حضارة أوروبا ، فـمن الغـريب أن يطلق الغربيـون اسم (النهضـة) علي ذلك التقـوقع داخل (التصـور الإغريقي) للكائن الإنساني المحـيط ، وعلي ذلك الاكتفـاء بمفهوم (المدينة) اليـونانية عن القومية حيث يعتبر (الآخرون) (برابرة) خلقـوا للاسترقاق وغريب كذلك أن يسمي (نهضة) ذلك الانحباس داخل المفهوم الروماني من الملكية والسطوة الإمبراطورية (نفسـه ص٤١).

(٢) ويقرر جارودي أن الغرب ليس إلا حدثا تاريخياً طارئاً لثقافته الإمبراطورية هجينة انتزعت من ثقافات سابقة عليها. ومنذ قرون ما فتئت الثقافة الغربية تدعي أنها وريثة التراثين الروماني اليوناني واليهودي والمسيحي(نفسـه ص٣٢)

(٣) الاستاذ علي مراد في مقدمة كتاب (الأسلام دين المستقبل)ص١٩

○ منهج التفسير للتاريخ الإسلامى :

نظن أنه من الحكمة الاسترشاد برأى فيلسوفنا الضليع فى فهم الماركسية مذهباً ومنهجاً . . لنقد هذا المنهج وإقامة منهج آخر على انقاضه لتفسير تاريخ أمتنا ، وهى نقطة خلاف هامة فى فهم التاريخ الإسلامى بين المسلمين والماركسيين وغيرهم من العلمانيين وأتباع الفلسفة الوضعية ، وما كان لنا الاهتمام بهذا المنحى فى فكر جارودى إلا أننا نقدر أهميته فى استخلاص أحد السنن الإلهية فى التاريخ ، فإذا ما عرفناها أمكننا مواجهة حجج هؤلاء جميعاً، وسهل علينا الالتزام والتطبيق أيضاً لأنه بيت القصيد [1] حيث سيحول القاعدة العامة (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) سيحوّلها إلى منهج عملى ، محدداً الخطوات ومرشداً إلى المبادئ :

أول ما يلاحظه فيلسوفنا ـ وكل دارس للتاريخ بأمانة وحيدة ـ أن ظاهرة انتشار الإسلام لا تعلل بالأسباب التى استند إليها الباحثون الغربيون :

١ـ كالقول مثلاً بوقوع الجزيرة العربية على مفترق طرق الحضارات ، وفيها تم تمازج الأديان والثقافات التى لم يكن الإسلام إلا محصلة لها ومبشراً بها[2] .

ومواجهة هذا التعليل بسيط للغاية ، ذلك بأنه قد انطلقت من مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية بصحاريها وواحاتها عقيدة واحدة وروح جماعية واحدة مخالفة تماماً للثقافات الأخرى عبر ثلاث قارات من الهند إلى إسبانيا ، ومن آسيا الوسطى إلى قلب أفريقيا . فالمد الإسلامى يعد تحولاً تاريخياً بما يجوز أن نطلق عليه اليوم (الثورة الثقافية)[3] .

٢ـ إخضاع الشعوب بالسيف ـ أو القوة المسلحة . يلتبس على القائلين بهذا بسبب طبيعة الغزوات الأوروبية الكبرى على أمريكا وأفريقيا ، فيخلطون بينها وبين انتشار الإسلام .

---

(١) فضلا عما يهدفه جارودي من خلال (حوار الحضارات) أن يفيد الحضارة الغربية المعاصرة أيضاً مستنداً إلى أن الإسلام سبق أن أنقذ امبراطوريات كبرى بتهافته من الفناء في القرن السابع الميلادي. فهل بمقدوره اليوم أن يأتي بحلول لهذا القلق وتلك المشكلات التي تعاني منها (حضارة غربية)؟

(٢) جارودي : مايعد به الإسلام ص٤٢.

(٣) جارودي محاضرة (حوار الحضارات) القاهرية في الاسكندرية في ٢٠/ ٣/ ١٩٨٣ ونشرتها الاستعلامات بكتيب ـ ص١٤ .

٣ـ إن هذه الغـزوات كانت تتـمتع بتـفوق عـسكرى مطلق ، قوامـه المدفع والبندقية أولاً والرشاش ثانياً ، بينمـا لم يكن يملك المسلمون ما يملكه الفرس والبيزنطيـون ـ أصحاب السلطان فى العالم حينذاك ـ من أسلحـة وفنون حربية فأين أسباب القوة والتفوق العسكرى ؟!

٤ـ استـخدام المقـولات (الماركسـية) التى تفـسر حـركة التـاريخ وثوراته وتحولاته بـالمستوى الـتقنى والعـلاقات الاقتـصادية وصـراع الطبقـات الناجم عنها[1].

ويرى جارودى بعد استيعابه لعقيدة الإسلام وروحه أنه من الخطأ تطبيق هذه المقولات الماركـسيـة على هذا التقـدم السريع المذهل لأتباع النبى ﷺ الذين سادوا بأقل من قرن واحـد بعد وفاته ما يقارب كل العـالم المعروف حينذاك ، حيث لا تتوافر العـوامل التى يحتج بها الماركسيون فى تفـسيرهم للتاريخ التى تتقوقع فى (أحكام سابقة) لتقـول : إنه لا شىء يولد إلا نتيجة أو محصلة لما سبقه .

٥ـ تفسـير الفلسفة الـوضعية فـتنفى سلفاً كل امكانية لحـدوث (الطفرة)[2] التاريخية ، لا تفلح هذه الفلسفة أيضـاً فى تفسير هذا الحدث التاريخى العظيم لأنها تعجز عن فهم التغيير المفاجئ بلا مقدمات وعوامل ممهدة له .

إذن يبقى العامل الوحيد لهذه الظاهرة المذهلة ، حـيث لا يمكن فهمها بغير (الإسلام) كعقيدة وروح جماعية مشتركة تقوم على هذه العقيدة .

والدرس المستفاد من هذا التفسير التاريخى أنه لا حجة للمسلمين المعاصرين بالتعـلل بالضعف أمام الـقوى العالميـة . انهم فى حاجـة أولاً وبصفـة ملحة وجوهريـة إلى مقاومـة الأنفس المستـسلمة للأهواء ، وإيقـاظ هذه الروح التى أيقظت الأمة وكانت سبباً فى انتصاراتها التاريخية الحاسمة .

لقد أجـمل جارودى التـعليل الصحيح وربط به طريـقة العلاج فى عـبارة جامعة قال فيها (إن عـملية الإبداع المستمرة فى الكون وفى الإنسان مردها إلى تلك (الطفرات) وإلى تحدى كل ألوان (القصور الذاتى) وكل أشكال الانحطاط

(١) نفسه ص٤٣ .

(٢) يعني (بالطفرة) التاريخية ولادة حدث جديد تاريخي مفاجئ (ص٨٨).

فى الطاقة ، وإلى الحد من تنامى الفوضى ، التى تسود قوانين الطبيعة والتاريخ كلما استسلم البشر إلى هواهم)[1]

إن هذا التفسير التاريخى الصحيح يفيدنا فى معرفة أن ما حدث لماضى هذه الأمة، يمكن أن يحدث مرة أخرى بشرط أخذها بنفس الأسباب : إنها سنة من سنن الله تعالى فى المجتمعات والأمم .

o التعريف بالحضارة الإسلامية :

يرى جارودى أن هناك مؤامرة مقصودة للتجهيل بحضارة الإسلام ، كان أصحابها يرمون من ورائها افقاد المسلمين الثقة بأنفسهم [2]

ولعله كان مسبوقاً ببعض الباحثين الأوروبيين والأمريكيين المنصفين الذين كتبوا فى تاريخ الحضارة الإسلامية ومنجزاتها بأمانة مبينين آثارها وفضائلها على الحضارة الغربية ، ولكن هذه الأصوات كانت قليلة ، وكادت تختفى وسط الموجة الطاغية التى تنكر أى فضل للإسلام وتجعل أوروبا مركزاً للعالم تاريخياً وجغرافياً ، مثلما فعلوا بتقسيم التاريخ إلى قديم وأوسط وحديث ، وتحديد مكانة البلاد والقارات الأخرى حسب خريطة أوروبا فأطلقوا أسماء الشرق الأوسط والأدنى والأقصى .

وإذا عرفنا مدى خضوع مناهجنا التعليمية ومصادرنا الثقافية للمصادر الأجنبية طوال فترة الاستعمار العسكرى ، أدركنا كيف بذروا فى نفوسنا مثل هذه التصورات لتزلزل ثقتنا فى أنفسنا ، ونظل ننظر نظرة إكبار للغرب .

ولم يكن هدف جارودى إعادة الأمور إلى نصابها وإعطاء كل ذى حق حقه، بل كان هدفه إثبات أنه بإمكان الحضارة الإسلامية أن تقدم للبشرية من جديد أجل الخدمات كما فعلت فى الماضى ،فهو يقول بهذا الصدد (إن هذه المنطلقات بتقويمها المشوه للحضارة الإسلامية لا ترمى إلا إلى إنكار أصالة هذه الحضارة وجحود ما يمكن أن تقدمه للمستقبل من ألوان العطاء) [3]

---

(١) جارودي: ما يعد به الإسلام ص٤٤ والعبارة تشرح مفهوم (الطفرة) عنده فهي لا تحدث إلا بعد عمل دائب وبذل الجهد المتواصل للتغلب علي التراخي والكسل، وتحقيق الانضباط والنظام ومغالبة أهواء النفس.

(٢) يقول جارودي (لقد كان الشاغل الأساسي للمستعمر هو أن يقوض ثقة الشعوب بماضيها: محاضرات جارودي مجلة الطليعة ص١٣٩ سنة ١٩٧٠م .

(٣) جارودي: ما يعد به الإسلام ص١٨٢

وقد سلك جارودى فى ذلك أقرب الطرق ليوضح بشكل قطعى وثابت فضل حضارة الإسلام على حضارة أوروبا ، فحدد خط سير العلوم التى تقدمت على أيدى علماء المسلمين وانتقلت إلى أوروبا محدداً بالإسم الجامعات التى تلقت عنهم . فقد أنشئت كليات الطب الكبرى الغربية (كلية سالون فى صقلية بعد نهاية الحكم العربى وكلية بولونيا وكلية مونبيليه بفرنسا على غرار كليات الطب العربية وتحت تأثير تعاليمها . وكذلك الجامعات الأوروبية من جامعة باريس إلى جامعة أوكسفورد التى أنشئت على الطراز الإسلامى بعد ثلاثة قرون [١].

أما حقيقة دور (روجيه بيكون ١٢١٤-١٢٩٤م) فقد انحصر فى نقله للمنهج التجريبى لدي المسلمين، وكان قد تلقى علومه فى جامعات إسبانيا الإسلامية.

ويضع جارودى أيدينا على وثائق لا مجال للشك فيها لإثبات وقائع نقله عن علماء المسلمين ، محدداً على سبيل الحصر عالم البصريات ابن الهيثم حيث نسخ باكون بصرياته فى الجزء الخامس من كتابه (الكتاب الكبير) المخصص لدراسة علم البصريات (وهذا ما جعل منه رائد الطريقة التجريبية والعلم الحديث فى الغرب [٢]، بل يورد لنا نصاً صريحاً على لسان باكون يعترف فيه باقتباساته على الأقل فى ميدان الفلسفة حيث قال :(الفلسفة نابعة من الأرض العربية ، ولا يستطيع أى لاتينى أن يفهم الحكمة إذا لم يكن يعرف اللغات التى ترجمت منها)[٣].

وقفز العلم قفزات واسعة فى أوروبا منطلقاً بالمنهج التجريبى الذى تعلمه العلماء هناك من المسلمين - بينما لم يعرف اليونان هذا المنهج - ولكن جارودى يلفت نظرنا إلى ملاحظة دقيقة لا يقف عليها إلا مفكر مثله فى العمق وسعة الأفق . إن من أجمل ما يلفت نظرنا إليه هو فهمه للأساس الذى قام عليه العلم عند المسلمين، فقد أقيم على مبدأ (التوحيد الإسلامى) ، فما مقصده من هذا التعبير ؟

فى الطب مثلاً تظهر (وحدة الجسم الناتجة عن ترابط الأجزاء مع الكل ،

---

(١) جارودي: الإسلام دين المستقبل٩١.

(٢) نفس المصدر ص١٠٣.

(٣) نفس المصدر ص١٠٣.

وحدة الكائن الحى مع بيئته ومع مجموع التأثيرات الكونية ، وحدة الروح مع الجسد التى تبشر بالطب النفسى الجسمانى ، وهكذا تحتل مفاهيم التوازن والتوافق الجوهرية فى الإسلام المكانة الأولى فى نظرية الطب وتطبيقه)[1]

وبانتقاله إلى (علم الفلك) يرى أنه بواسطة معرفة علم النجوم (يصل الإنسان إلى برهان على وحدانية الله تعالى وإلى معرفة حكمة الله فيما خلق[2].

وإذا أثبت فضائل المسلمين على حضارة أوروبا أصبح من الميسور إقناع أهلها بأنه بوسعهم أيضاً الأخذ بقيم الإسلام لإنقاذ حضارتهم ، فقد تعلموا على أيدى علماء المسلمين صنوف العلم المختلفة ، ولكنهم لم يأخذوا معها القيم والمبادئ فماذا يمنع الآن من خلال الحوار أن تستمد الحضارة الغربية من الإسلام نظرته الثقافية ؟

إنه فى سبيل ذلك يصحح وقائع التاريخ لكى يعيد حلقاته إلى أوضاعها الحقيقية الثابتة لكل من درس التاريخ بأمانة، فقد أثاره أن وجد قومه يروجون ويذيعون فى أوروبا أن الفترة من القرن السابع الميلادى (أى وقت ظهور الإسلام) وحتى القرن الرابع عشر - فجوة سوداء.

وقد أدى بهم هذا التصور إلى اعتبار المسيحية امتداداً للفكر اليونانى ، والقديس توما خلفاً لأرسطو ، وجاليليو فى القرن السابع عشر مطوراً لنظريات أرشميدس فى القرن الثالث قبل الميلاد !!

فكيف يتصور قارئ التاريخ أن هذا قد حدث بالفعل ؟ كيف تحذف قروناً بأكملها من سجلات التاريخ ووثائقه المدونة المحفوظة التى تثبت وجود كيان حى ، كيان الحضارة الإسلامية بعلومها وآدابها وفنونها ، بمدارسها وجامعاتها وعلمائها ، بأممها وجيوشها ومعاركها التى خاضتها ؟

إنه لما كان من قبيل الاستخفاف بالعقول انكار كل ذلك ، فقد أعلنوا تبريراً لا يستطيع إقناع الناس حظاً من الذكاء ، إنهم فسروا هذه القفزة الهائلة من قرون ما قبل الميلاد أى القرن السابع عشر بأن الغرب كان فى عزله!!

---

(١) الإسلام دين المستقبل ص١٠٢.

(٢) نفسه ص٩٤.

وما أصدق جارودي في سخريته عندما يعلق علي هذا التفسير بقوله (هذه هي الأسطورة الأوربي المعتمدة علي مركزيه أوروبا والتي يجب تبديدها كما يطرد حلم كاذب)[1]

وربما يأمل فى إيقاظ صاحب الحلم الكاذب ، وأن ينتبه إلي الحقيقة ويسعي إلي معرفتها بدلاً من أن يظل يغط في نومه العميق ، غارقاً في أحلامه الكاذبة.

ويقصد جارودي الغرب بأكمله .

هل يأمل جارودي في تحقيق ذلك من خلال (حوار الحضارات) ؟.

* * *

(١) جارودي: الإسلام دين المستقبل ص١٠٦ . ويزيح الستار عن حطة أخري كانت تتخذ لانكار دور علماء المسلمين حيث كانت اكتشافاتهم بشكل مضحك إلي هذا أو ذاك من العلماء الإغريق أو الغربيين ص٩١ نفس المصدر.

المقومات الأساسية لكل من الحضارتين الإسلامية والغربية

عقيدة التوحيد :

(التوحيد) هو الأساس المتين للمسئولية والحرية لدى الإنسان ، ولفظ (الإسلام) ذاته يعنى (التسليم) لإرادة الله [1].

وقد استبعد جارودى التعريفات الخاطئة والأفكار المشوهة عن الإسلام فى أذهان الأوروبيين وفى كتب التاريخ وأجهزة الإعلام ، ونفى عن المسلمين الصفات التى كانت تطلقها عليهم الدوائر السياسية الغربية لأغراضها الخبيثة، فكانت تتكلم أيام الحروب الصليبية عن (الإنسان الكافر) وأيام حرب تحرير الجزائر عن (الإرهابى) ويستطرد فى نفى الصور الذهنية المشوهة التى علقت بالأذهان هناك، فإن الإسلام ليس تحفة يتأملها مستشرق يحكم عليها بفكرة سابقة عن تفوق الغرب ، كما أنه ليس هروباً رومانسياً صوب الغرابة ، وأيضاً ينفى أنه مجرد تفجر علمى مذهل مهد الطريق لعلوم أوروبا الحديثة .

إن الإسلام فى عبارة موجزة يعنى (أنه تلك النظرة إلى الإله والعالم والإنسان نظرة توكل إلى العلوم والفنون وإلى كل إنسان ومجتمع مهمة إقامة عالم إلهى - إنسانى متماسك يتضمن البعدين الأساسيين :التسامى والروح الجماعية)[2].

ومفهوم التوحيد فى الإسلام سهل ومقبول ويختلف جذرياً عن التفسيرات اليونانية لمفهوم (الأقانيم الثلاثة)[3].

وتقوم عقيدة التوحيد فى الإسلام على بديهيتين أساسيتين :

الأولى: أن وحدانية الله تعالى هى الحقيقة الوحيدة ، وذلك هو مضمون (الشهادة) التى هى الأساس المبدئى للإيمان.

البديهة الثانية والمسلم بها والقائلة بأن (محمداً رسول الله) فهى مرتبطة بالمقولة الأولى ، لأن محمداً ﷺ هو الشاهد على كل حقائق الوحى الإلهى وآياته[4].

---

(١) ما يعد به الإسلام ص٥٣ .
(٢) نفسه ص٤١
(٣) نفسه ص٦٠.
(٤) نفسه ص٥٢.

إن التوحيد هو جوهر الإسلام وروحه ، هذا التوحيد ينفى كل (صنمية) ، وهو الأساس والمنطلق لدى المسلم المؤمن بأنه [لا إله إلا الله] .

والحديث عن (الصنمية) أو (الأصنام) يشعرنا بأن هناك لوناً من التقديس لها، وهى ليست أصنام العرب فى الجاهلية ، ولكنها أصنام العصر الحديث ، يحصرها جارودى فى (التنمية) و(التقدم) و(الفردية) ، (تمجيد الأمة) ، أصنام القوة المسلحة والجيوش الجرارة وغيرها من أصنام وطواطم ورموز مقدسة وطقوس واحتفالات) [1]

وما أعمق فهمه لعقيدة التوحيد عندما يقول عقب تعداده للأصنام (المعاصرة) :

أما الإسلام فيرد علي كل تلك الأصنام بقوله كلا ثم كلا ،فلا إله إلا الله، والله أكبر)[2].

وقد ظهرت حيوية العقيدة الإسلامية أيام ازدهار الحضارة الإسلامية حيث حركت المسلمين لنشر الإسلام فى العالم لإعلاء كلمة الله تعالى ، ومثلما فعلت فى الماضى فإن هذه العقيدة كانت بمثابة الدرع الواقى للمسلمين فى معركتهم ضد الاغتراب ، فى العصر الحاضر وهى أظهر ما تكون لمن يدرس حركة التحرير الجزائرية وجهاد الأفغان ومجاهدى إيران[3].

وكانت عقيدة التوحيد تمثل أحد سببين لظاهرة انتشار الإسلام وإشعاعه على العالم واستمراريته ـ لأن التوحيد فى جوهره (ممارسة) تدحض الفكرة القائلة بأن الإسلام يدعو إلى التسليم والجبرية . ويتمثل السبب الثانى فى الطريقة الجديدة فى الحياة ، أى النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المرتبطة بعقيدة التوحيد أيضاً حيث أضفت (معنى جديداً على الحياة لدى شعوب تشكو من الضلال بسبب انحلال مجتمعاتها وثقافاتها وعقائدها [4].

---

(١)جارودي : ما يعد به الإسلام ص ٢٦٧.   (٢) نفسه

(٣) نفسه ص٩١ ويتحفظ جارودي عن ذكر مجاهدي ايران فيقول (قبل استئثار بعض المشايخ بالسلطة الزمنية والروحية)

(٤) نفسه ص٥٤.

وجارودى تحليل عميق لمغزى العبادات ، نلخصها حسب ترتيبها :

ـ إن الصلاة هى مشاركة الإنسان بشكل واع فى تسبيحة الحمد التى تربط المخلوق بخالقه .

ـ والصيام هو انقطاع إرادى فى إيقاع الحياة يعتبر تأكيداً على حرية الإنسان تجاه ذاته ورغباته .

ـ والزكاة ليست صدقة ، لكنها نوع من العدالة الداخلية المفروضة بحكم الشرع والانتصار على الأنانية والبخل فى قلوب أهل الإيمان وتذكيرهم بأن ثرواتهم ـ مثل كل شيء تعود إلى الله تعالى ولا يمكن للفرد التصرف فيها على هواه.

ـ والحج يجسد فى أحد معانيه الحقيقة العالمية للأمة الإسلامية ككل [1].

○ الثقافة الإسلامية وتطبيقاتها:

خرج إلينا جارودى بآراء جديرة بأن توضع موضع التنفيذ من حيث تصحيح تاريخ الحضارة الإسلامية ، ومن حيث العمل على تعديل مناهج التعليم بما يوائم عقيدة الإسلام ، إحياءً للمنهج التعليمى الذى كان متبعاً إبان ازدهار الحضارة الإسلامية .

يقف جارودى على هذه الحقيقة الأولية التى تتلخص فى أن نقط الانطلاق فى أى نوع من التعليم هو القرآن الحكيم ، لأن حكمة الإيمان تجمع كافة العلوم فى كلٍّ عضوى ، لأن العلم بكل مكوناته هو آيات لله تعالى .

وبناء على هذا الفهم الصحيح ، فإن المساجد كالمدارس كالجامعات تماماً ، فهى مراكز للثقافة والتعليم (حيث يبقى تعليم وحدانية الله ووحدة الطبيعة أساساً لكل معرفة . وهذه حال القيروان فى فاس والزيتونة فى تونس والأزهر فى القاهرة ، وجامعات سمرقند وقرطبة وليس هناك فاصل بين أمكنة التعليم وأمكنة البحث الأخرى سواء أكانت المراصد أو المشافى التى كانت فى الوقت نفسه كليات للطب)[2].

ونرجو أن يكون هذا الفهم الذى يؤيده التاريخ منبهاً لنا لمعرفة انحراف

---

(١) جارودي : الإسلام دين المستقبل ص٣٥/ ٣٦.
(٢) جارودي : الإسلام دين المستقبل ص ٩/ ٩١

مناهجنا التعليمية الحالية عن طريقة المسلمين أيام حضارتهم حيث رسخت وحدة التعليم المرتبطة بالعقيدة ، رسّخت الإيمان وجعلت من العلوم المختلفة مسالك لمعرفة المسلم بربه عز وجل وتعميق إيمانه ، فازدهرت العلوم والمعارف لأن طلب العلم أخذ طابع العبادة ، وصار علماء المسلمين بهذه الطريقة اساتذة العالم .

أما مناهجنا الحالية فهى منقولة تكاد تكون حرفياً من مناهج التعليم الغربى فى العلوم التجريبية والفلسفة الغربية والقانون والنظم وغيرها ، فلا عجب أن تخرّج أجيالاً ضعيفة أو مشوهة العقيدة .

العلم الغربى والتنمية الغربية :

وقد كنا قبل قراءة بعض كتب جارودى نظن أن العلم لا دين له ولا جنسية له ، وهذه القاعدة صحيحة فى مجملها إذا ما عرفنا أن العلم كمحصلة جهود علماء مختلفين ، ينسب إلى بعض الأفذاذ منهم ، ولكنّه فى النهاية يعرف بفروعه كالطب والهندسة والكيمياء والفلك والصيدلية وهكذا . لكن جارودى يفاجئنا بهذا التمييز الذى انفرد به فيما نعلم ، حيث ميّز بين (العلم الإسلامى) و (العلم الغربى)فكيف حدث هذا ؟

نعود بذاكرة القارئ إلى ما أثبته فيلسوفنا باستقراء التاريخ أن العلم بمعناه التجريبى قد نقله الغرب عن الحضارة الإسلامية ، ولكنهم هناك فى أوروبا اكتفوا بالمنهج وطبقوه ، وبنتاج قرائح العلماء فنقلوها واستأنفوا البحث العلمى بعدها ، ولكنهم لم يأخذوا (الحكمة) . بعبارة أخرى أخذوا الوسائل ولم يبحثوا فى الغايات .

ويشرح لنا جارودى هذه الفكرة بناء على القاعدة المنهجية التى انطلق منها المسلمون فتميزوا عن غيرهم ، إنه يرى أن العلم عند المسلمين بدأ من محاولة فهم الإنسان واحتياجاته وأهدافه .

ونقل الغرب العلم والمنهج التجريبى ولكن تحولت وجهته وغاياته على أيدى علمائه لأنهم نزعوا منه (الحكمة).

يقول جارودى بسخرية لاذعة (علمنا الذى ندعوه بصلف «العلم» بدلاً من

أن نسميه بكل بساطة «العلم الغربى». !!(1)

وربما يقصـد اتجاه العلم على يد الغرب إلى الإضـرار بالإنسان والطبيـعة. كذلك يقدم جارودى لنا إحـصائيات مفزعة بسبب اتباع طراز «التنمـية الغربية» الذى ساد فى العالم أجمع منذ خـمسة قرون لأنه يستهدف فـقط كثرة الانتاج لمجرد انتاج أى شيء وبأسـرع ما يمكن سواء كان نافـعاً أو ضاراً . ثم يخص بالحديث اقتصـاد التسليح الذى أدى بالغرب أن ينفق خلال سنة ١٩٨٢م وحده ٦٥٠ مليار دولار على انتاج السلاح ويستخلص من هذا الرقم الكبير أن معدّل ما يصوب نحو كل إنسان على وجه الكرة الأرضية من وسائل الدمار هو أربعة أطنان من المتفجرات !!(2).

ومن المذهل حقاً أنه بعد الثورة الصناعية بقرنين التى تنبأ لها البعض بازدهار غير محدود للإنسان ، مات فى العالم الثالث من الجوع عام ١٩٨٠م خمسون مليون نسمة !!(3) ويحمّل جارودى الدول الصناعـية الكبرى مسئـولية الفرق الشاسع بين نمو (البـعض) وتخلف (البعض الآخر) لأن تحقيق التنـمية للبلدان الكبرى (أوروبا والولايات المتحدة واليابان) ليس ممكناً إلا بنهب الثروات المادية لثلاثة أرباع العالم .

وينجم عن الوعى بهذه الحقيقة نتيجتين :

الأولى : فضح (الأكذوبـة) القائلة بفرض أسلوب الغرب فى التنمـية على البلدان المتـخلفة لأنه قـائم على نهب ثلاثة أرباع بلاد العـالم ، ولا يمكن تطبيقه بحرفيته على جميع الأقطار.

الثانية : كلما نجم عن هذه الطريقة أزمة أو خـسارة انعكس ذلك فى تعميق حدة التخلف (4).

---

(1) جارودي: الإسلام دين المستقبل ص٨٨.

(2) محاضرة (حوار الحضارات) ص ١٤/ ١٥ . كتاب هيئة الاستعلامات (جارودي) ويري جاردوي أنه لا يمكن الحكم علي تطور العلوم والـتقنيات في حـضارة من الحـضارات دون أن تأخـذ بعين الاعتـبار الاحتياجات الواجب تلبيتها. والمنهج الثقافي في ذلك المجتمع. من كتابه الإسلام دين المستقبل ص٨٧

(3) السابق ص١٠٧ واسـتند إلي قولة البـيولجي الكبيـر جوزيف فيـدهايم في عام ١٩٦٩ (لدينا أسباب كافية تدفعنا للاعتقاد بأن مشاكل العالم لن تحل طالما أننا ننظر إليها من وجهة نظر أوروبية محضة.)

(4) جارودي: مايعـد به الإسلام ص٢٤٨/٤٧. وله اقتـراحات مدروسة مـبنية علي أرقام واحصـائيات جديرة بأن توضع أمام الاقتصاديين للبحث والتنفيذ (ينظر المصدر نفسه ص٢٥٥ وما بعدها) .

الإنسان بين الفلسفة الغربية والعقيدة الإسلامية:

انزعج جارودى من ثورات الشباب بباريس سنة ١٩٦٨م وأخذ يتأمل هذه الظاهرة التى تفجرت بحيث تبدو للناظر أنه بغير مقدمات ، ولكنه الفيلسوف المحيط بالمذاهب الفلسفية، العالم بتاريخ الحضارات المتيين لآفة حضارة الغرب. وقف من هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر وقفة الدارس الباحث عن العلل والأسباب .

إنه يرى فيها أحد نتائج الفلسفة الوجودية التشاؤمية وربما ترجع أيضاً إلى الفلسفة(البنائية) الذى أعلن أحد فلاسفتها (موت الإنسان)[1] .

ونميل إلى الاعتقاد بأن جارودى من خلال اسطر كتابه (نظرات حول الإنسان)ـ الذى كتبه فى مرحلة الماركسية وكان يشفق على (الإنسان) من الفلسفة الوجودية التى استمرت مسيطرة أكثر من ثلث قرن ، التى تمثل فى جوهرها صورة من صور (الفردانية اليائسة) .

وكان اشفاقه على الإنسان أشد بسبب الفلسفة (البنيانية) التى تحول الفرد على يديها إلى (مجرد نقطة لقاء فى كل جزء من أجزائه لما يرد عليه من

---

(١) وردت هذه العبارة ـ أي موت الانسان ـ في ثنايا كتاب الفيلسوف (فوكوه) الذي ظهر سنة ١٩٦٦ تحت عنوان(الألفاظ والأشياء) ينظر كتاب (مشكلة البنية) للدكتور زكريا ابراهيم ص١٣٦ ـ مكتبة مصر سنة ١٩٧٦ ولعل من أفضل تعريف لـ (البنيوية) ذلك الذي قدمه الدكتور زكريا ابراهيم إذ يقول (والحق أن كل ما يجمع بين ليفي اشتراوس وفوكوه ولا كان والتوسير ، إنما هو ذلك المشروع العلمي الذي أرادوا تطبيقه علي معرفتنا بالانسان. . . فالقول بأن البنيوية هي ـ أولاً وقبل كل شئ (ابستمولوجيا)« نظرية معرفة » لا (ايديولوجيا) (موقف عقائدي) انما يعني أن (البنيوية) لا تزيد عن كونها مجرد محاولة علمية منهجية لدراسة الظواهر عموماً، والظواهر البشرية خصوصاً . من وجهة نظر (البنية) سواء أكانت البنية هي (النموذج)أو البناء الصوري أم كانت مجموع العلاقات الباطنة المكونة لوحدة أي موضوع من موضوعات العلم ، سواء أكانت (البنية) أداة فعالة ناجعة في هذا العلم أو ذاك ، أم كانت مجرد وسيلة معرفية أكثر معقولية وأشد ملائمة لمقتضي الحال بالقياس إلي غيرها من الوسائل الأخري السابقة أو الحالية. ويري أن البنيوية تنطوي علي منظور فكري خاص يحمل في طياته انقلاباً فلسفياً حقيقياً ويمثل ثورة كوبرنيقية من نوع جديد: نظراً لأن من شأن هذا المنظور البنيوي أن يجعل من (الذات) مجرد (حامل) ترتكز عليه (البنية)أو البينات) كما أن من شانه أيضاً ان يحيل (التاريخ) إلي محض تعاقب اعتباطي لبعض (الصور) او (الأشكال) بعبارة آخري كما يعبر عن ذلك فوكوه أن ما قد وجد قبلنا وأن ما يدعمنا في المكان والزمان إن هو الا (النسق) او (النظام) وفي نقد الدكتور زكريا لهذه الفلسفة يري أن في تضاعيف هذا الاتجاه الفلسفي الجديد انكاراً لقدرة البشر علي صنع تاريخهم الخاص ، ورفضا لكل (نزعة انسانية) ومن ثم فقد راح البعض يؤكد أن النداء الخاص الذي اتحدت عنده كلمة (البنويين) هو اعلان (موت الانسان) ينظر كتابه (مشكلة البنية) ص٢٤/ ٢٦.

الخارج ، من غيـر أن يكون فى كيانه ما يسمح باعـتراض هذا الوارد الخارجى وما يستعصى عليه)،وأصبحت هذه الحالة هى التى تحدد الإنسان الذى استحال إلى مجرد آلة. .)[1].

وكان نقـده للفلسفة (البنيـوية) واضحاً من خـلال عرضه لهـا لأنها أثارت المشكلة الفلسفيــة التى تواجه هذا الثلث الأخير من القرن العشـرين متمثلة فى التساؤل عن موت الإنسان [2].

ويظهر حرصه فى الدفاع عن (الذات الإنسانيـة) وفعاليتها بشكل خاص فى نقده للفلسفة البنيوية فى ثلاثة مواضع :

١ـ تغفل هذه الفلسفة فعل الإنسان وهو الأصل (ان البنيانية المذهبية المجردة تدعى إحالة كل الحـقيقـة إلى الهيكل البنيانى ، دون أن تصـعد إلى الفعـالية الإنسانية التى ولدته)[3].

٢ـ إنهـا تلغى وجود الإنسـان !! وهو لا يسلم لهـا بهـذا الموقف المفتـعل ويتهكم مما تذهب إليـه . إنها (فلسفة تنادى بموت الإنسان وتقـوم على غياب الذات ، إن الفرد مجموعة علاقاته الاجتماعية)!![4].

٣ـ ونجده أيضاً حريصاً كل الحرص على الإبقاء على (الأخلاق الدينية) لأن الفيلسوف (فوكو) قد أسقطها من حسابه . وفى هذا المنعطف من فلسفة فوكو يعبر جارودى عن أسفه الشديد معلناً عـن معارضته لهذا الفيلسوف الذى (رفع كتفيـه استخفافاً أو باسـتعماله خمس كلمات فـقط وهى «إذا أسقطنا الأخلاق الدينية من حسابنا».

يقول جارودى معترضاً ومستنداً إلى التراث الدينى وحقائق التاريخ الإنسانى (حذف بها ـ أى فوكر ـ كل التـراث المسيحى فى الأخلاق ، وهو ذلك التراث الذى ملأ إلى حد كـبير تلك الفتـرة التى وقعت بين ما أطلق عليـه فوكو اسم الأخلاق القديمـة ـ الرواقية والأبيقورية ـ والرفض المعـاصر للأخلاق من زاوية

---

(١) جارودى: نظرات حول الانسان ص ٢٩٥ ترجمة الدكتور يحيي هويدي.
(٢) نفسه ص٢٩٦.
(٣) نفسه ص ٢٩٦.
(٤) نفسه ص ٢٩٧.

البنيانيـة المذهبية) ويصف ذلك الفـعل ساخراً بأنه إجـراء تعسفى بالنسـبة إلى التاريخ لا يقوم به إلا (فارس مغوار).

ثم يعود فيؤكد الحقـيقة التى لا ينكرها إلا جاهل بالتاريخ (وذلك لأن فكرة الإنسان باعتباره ذاتاً لم تشطب بجرة قلم تأثير عدة قرون لا تبدو على أنها من خلق القرن الثامن عشر فقط ابتداء من روسو وكانط، بل تبدو مرتبطة أولاً على الأقل فى العالـم الغربى ، بتأثيـر الكنيسـة، وربما أيضاً بدت مرتبـطة بالتراث اليهودى وتأثيره على الفكر اليونانى)(١)

ونرى أن وراء جملته الاعـتراضية ـ على الأقل فى العلم الغـربى ـ مخزونا من المعرفة عن العالم الغير الغربى وتراثه الأخلاقى .

ويبدو أنه كـان مهـتماً حـينئذاك بالاطلاع على تراث الإسـلام أيضاً وان لم تتضح معالمه بصورة تجعله متمكناً من اتخاذ قراره .

وهكذا أصبح الإنسان وكأنه (لعبة) فى مذاهب الفلسفات المتعاقبة ، تتقاذفه أيدى الفلاسفـة ، ويخضع للتشخيص والتحليل من فـيلسوف إلى آخر ، لأن

---

(١) نفسه ص ٣٢٣. ويتلخص عرض جارودي للفلسفة البنيانية بأن المقولة الرئيسية من وجهة نظر البنيانية ليست مقـولة (الوجود) بل مقولة (العلاقـة) والدعوي الرئيسية التي تتبناها تقوم علي إثبات أولوية العلاقة بـالنسبة إلي الوجود ، وأولوية الكل بالقـياس إلي الأجزاء إذ لا معني للعنـصر الواحد ولا حقيقـة له إلا من خلال شبكة العلاقات التي تكونه ، وماركس هو الذي وضـع أساس هذه الفلسفة في تطبيقها في ميدان العلوم الإنسانية عنـدما كتب يقول في رسالته السادة عن فويرباخ (أن الفرد هو مجموعة علاقاته الاجتماعية . ثم تساءل قبل عرضه لتفاصيل هذه الفلـسفة (هل نجد هنا بذور فلسفة تقوم علي موت الانـسان ، وعلي نزعة لا إنسانية نظرية ؟) ص ٢٩٧نظرات حول الإنسان . ويمكن إجمال تصحيح جارودي لهذه الفلسفة كما يلي:

اولاً ـ لابد لدراسة الإنسان من دراسة الفـعل الإنساني نفسه في شموله وتطوره ، فـالانسان ـ وكما قال سيبيـاج بحق ـ هو المنتج لكل ما هو إنساني . .أو بتعبير مـاركس فمن الضروري ان لا نضحي بوجود المنتج(بفتح التـاء)وفعل الانتاج لحساب الناتج . فإذا طبقنا ذلك علي (الهـيكل البنياني) فإنه كإسم ـ وليس فعلاً ـ غير منفصل في وجوده عن الناس الذين يؤدون افعالاً .

ثانياً ـ يري جارودي ان الأسس التاريخيـة التي أقام عليها (فوكو) نظريته الذكيـة أسساً واهية جداً . كان عليه أن يعرج قليلاً علي التاريخ ويحترم الترتيب الزمني للأحداث (ص ٣٠٨،ص٣١٧) .

ولكنه في الوقت نفسـه يصرح بقبول البنيانية كمنهج للكشف والتحليل تتجلي فائدته في اظهارنا علي مستوي معين من الواقع البـشري والاجتماعي ، وبهذا المعني فهو وسـيلة لا يمكننا تعويضها ، ولكنه يرفضهـا عندما تزعم أنه قد أصبـحت فلسفة تقدم لنا تحليـلاً شافياً للواقع البشـري تحليلاً يؤدي إلي إنكار لحظة (الخلق) ولحظة الذاتية) لأنها بهذه الكيفية تصبح (اغترابا يجمد النشاط الإنساني) ص ٣٠٠ نظرات حول الإنسـان.

آفة الفلسفة أنها لا تستقر على حال ، ولا تثبت عند فكرة [١]

إن الإنسانية ـ كما يذكر جارودى ـ قد طعنت ثلاث طعنات فى الغرب ، أولها على يد كوبرنيكس ، فبعد أن كان الإنسان هو مركز العالم فى النظرة التقليدية منذ بطليموس ، حوصر وحوصرت أرضه التى يعيش عليها وأصبح الاثنان معاً يمثلان اليوم نقطة ضئيلة تستحق الرثاء وسط هذه المجموعة الهائلة التى لا قرار لها من الأجرام .

والثانية على يد دارون الذى استبدل بالحقبة التاريخية القصيرة التى تحدث عنها الكتاب المقدس على مدى ستة آلاف عام من الحوار بين الإنسان والله ـتعالى ـ مليونين من سنوات التاريخ وما قبل التاريخ .

والثالثة على يد التحليل النفسى عند فرويد الذى قدم للإنسان صورة قوامها مجموعة كبيرة من القوى المتباينة ، وتكونت النفس البشرية من العقد المخيفة لها وهى عقد قابلة دائماً لأن تفلت من أيدينا وينفرط عقدها [٢].

ونود أن نضيف ، إن كانت هذه مجرد (طعنات) للكرامة الإنسانية ، فإن الضربة القاتلة جاءت على يد (فوكوه) أحد فلاسفة البنيانية الذى أعلن عن موت (الإنسان)كما أسلفنا [٣]

الإنسان فى الإسلام :

أما الإنسان فى الإسلام فإنه حمل على عاتقه أكبر وأسمى مسئولية ، إنها مسئولية الوعي والإيمان إستناداً إلي قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]

---

(١) ومن العجب في هذا الشأن أن تعقد المؤتمرات ليعلن فيها انتقال الفلسفة من مذهب إلي آخر يروي لنا جارودي ما حدث أثناء انعقاد جلسة الجمعية الفرنسية للفلسفة في ١٩٣٧/١٢/٤ ويصفها بانها كانت الجلسة التي تمثل بصورة ما الجلسة شبه الرسمية التي تم فيها انتقال السلطة من أيدي (الفلسفة المثالية) إلي (الفلسفة الوجودية) وقد أعلن ليون برنشفيج شخصياً في هذه الجلسة ما يلي (أنا أتحدث إليكم مدركاً أني انتمي إلي جيل شهد فكراً بات من واجب جيل آخر جديد ان يأخذ علي عاتقه مهمة استمراره) من كتابه (نظرات حول الانسان) ص٧٤ .

(٢) ينظر كتاب (نظرات حول الانسان) ص٢٩٤ .

(٣) ونتوقف قليلاً عند أحد كتبه تحت عنوان (تاريخ الجنون).. د. زكريا ابراهيم/ مشكلة البنية ص١٣٦ . ولابد ايضاً من تعريف القارئ بأن احد فلاسفة هذه الفلسفة وهو (لويس آلتوسير) انتهي به المطاف إلي قتل زوجته ودخوله مستشفي الأمراض العقلية!!

وفى تفسيره للشطر الأخير من الآية ﴿إنهُ كان ظلوماً جهولاً﴾ ، يقول جارودى (على الرغم من أن الإنسان قد دلل على أنه ظالم وجاهل فقد أنيط به أن يكون خليفة الله على الأرض) [١].

ويضع فى الطرف المضاد لمكانة الإنسان فى الإسلام ، التصور (الغربى) للإنسان مستنداً إلى ثقافة عصر النهضة وشعاره أن الإنسان بما يمتاز به من عقل جبار يصير إلهاً !!!

ويرى جارودى أن هذا الشعور هو ما عناه القرآن الكريم (بالفرعونية) ـ أى كبر الإنسان وادعاؤه القدرة لنفسه إزاء جبروت الله ـ تعالى ـ وعظمته . كذلك يخص بالذكر الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى كتابه (حديث عن المنهج) وفيه يزعم وضع نظرية تجعل من البشر آلهة وسادة على الطبيعة . ويعلق بعد ذلك على أثر هذه الثقافة التى سادت أوروبا نحو خمسة قرون بقوله (حقيقة أن هذه النظرية قد حققت لنا قدرة هائلة للسيطرة على الطبيعة ولكنها .. أدت بنا إلى نتيجة مؤداها : أنه من فرط اعتبارالطبيعة مستودعاً للمواد الأولية ومستقراً للإنسان وفضلاته ـ أصبحنا من نفس هذا المنطلق فى حالة تدمير مستمر لها ، وهو عكس نظرة القرآن الكريم للإنسان باعتباره خليفة الله فى الأرض المسئول عن إيجاد هذا التوازن الطبيعى[٢]

والحديث عن مقام (خلافة الإنسان فى الأرض) يحتاج إلى إيضاح :

واتباعاً للسياق الذى التزمه علماء المسلمين من المفسرين والفقهاء والمحدثين وغيرهم ، فإننا سنبدأ من حيث بدأوا أى تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة :٣٠] وقال تعالى: ﴿خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف :٦٩] وقال عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[الأنعام :١٦٥]

وقد فسر الطبرى الخلافة بقوله (خليفة من يخلفنى فى الحكم بين خلقى

(١) جارودي : ما يعد به الإسلام ص٢٩٦

(٢) جارودي محاضراته عن (حوار الحضارات) القاها في الاسكندرية بدعوة من هيئة الاستعلامات في ٢/٣/١٩٨٣ ونشرتها الهيئة في كتيب ص١٦ .

وذلك الخليفة هو آدم و من قال مقامه فى طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه ، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه ، ومن غير آدم ومن قام مقامه فى عبادة الله .(١)

ويتضمن هذا التفسير ملاحظات ثلاثة :

الأولى : إن الخلافة فى الحكم بين خلق الله تعالى ، أى تنفيذ شرعه منذ آدم عليه السلام ومن قام مقامه .

الثانية :يستحق الخلافة بهذه الصفة المؤمنون الطائعون الذين يتحرون العدل فى الحكم .

الثالثة: لا تطلق الخلافة على المفسدين فى الأرض ، إذ أن آدم عليه السلام يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً ، فأضيف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذرية خلفته دونه ، وأخرج منه خليفته .

وشذ عن ذلك ابن عربى الصوفى الفلسفى وأتباعه حيث قال بأن الخليفة هو خليفة عن الله تعالى مثل نائب الله سبحانه وتعالى ، وتفسير تعليم آدم الأسماء بالصفات التى جمع معانيها الإنسان وخلق آدم على صورته وأريد به هذا المعنى فأخذوا عن الفلاسفة إن الإنسان عالم صغير وضموا إليه إن الله تعالى هو العالم الكبير بناء على أصل فكرة الوجود (٢)

ويلاحظ أن جارودى مفتون بابن عربى ولكن لا يقبل فكرة وحدة الوجود. (٣)

ولكن علماء السنة يرفضون هذا التفسير ويستبعدونه تماماً ، لأن الله تعالى

---

(١) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج١ص٤٥٢ تحقيق محمود شاكر ومراجعة احمد محمد شاكر ط دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(٢) ابن مفلح : مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص٢٣ ـ الناشر علي رحمي ـ دار مرجان للطباعة بالقاهرة ١٩٨٠م .

(٣) ابن مفلح : مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص٢٣. ويرى الشيخ النجار أن الخلافة عن الله تعالي بالمعني الصحيح لا تتعارض مع أنه سيكون للإنسان أيضاً سلطان عليها متصرفاً في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته (قصص الأنبياء ـ مقدمة الطبعة الثانية ص١٦ـ العالمية للتوزيع .ولعل تعريف الإنسان الجامع بين الروحي الإخلاقي ، والعضلي بقدراته علي البحث والاكتشاف والتصرف ـ هذا التعريف بقسميه هو الأساس لقيام حضارة إنسانية جامعة بين القيم والتقدم التكنولوجي ، وفي ضوء ذلك يمكن تقويم تاريخ الحضارات .

فى رأى فلاسفة وحدة الوجود هو عين المخلوقات ، ويترتب على هذه الفلسفة إن الإنسان من بين الظاهر هو الخلافة الجامعة بين الأسماء والصفات ويتفرع على هذا دعوى الربوبية والإلهية المؤدية إلى الفرعونية ، وهذا باطل ولا يجوز إن يكون لله تعالى خليفة بهذا المعنى ، ويقول ابن مفلح (بل من اعتقد بالخلافة بهذا المعنى فهو مشرك بالله تعالى - ولهذا لما قالوا لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - : يا خليفة الله ، قال : لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله - ﷺ (١)

والاعتراض على هذا التفسير الفلسفى ينصب على تأليه الإنسان وإعطائه نفس صفات الله تعالى ، ومن ثم عدم التمييز بين المؤمنين الطائعين والعصاة الكافرين ، إذ أن الفلسفة - فضلاً عن مخالفتها للحقيقة الشرعية والكونية - فإنها تؤدى إلى الاستخفاف بأوامر الدين وتهدم القيم الخلقية من الأساس .

وهناك أيضاً من العلماء من اعترض على تفسير الخلافة بأنها عن الله تعالى، إذ أن الخلافة إنما تكون للنيابة عن الغير ، أما لغيبته أو لعجزه ، وذلك لا يجوز على الله سبحانه وتعالى فإنه الحى القيوم .

وقد فند ابن مفلح هذا الاعتراض ، موضحاً أن الخلافة بالمعنى الصحيح إنما هى بالشرط المتقدم - أى الطاعة والحكم بالعدل ، فهى ليست خلافة بسبب غيبة الغير أو عجزه لأن الاستخلاف قد يكون فى أحوال أخرى مثل :-

١- أن يستخلف المستخلف غيره امتحاناً للمستخلف أو تهذيباً له .

٢- أو يستخلفه لقصور المستخلف عليه عن قبول التأثير من المستخلف ، - لا لعجزه - ومثال ذلك أن السلطان جعل الوزير بينه وبين رعيته ، وكذلك جعل الله تعالى الرسل بين الملك الذى هو من قبله تعالى وبين العباد لفضل قوة إعطائهم ليأخذوا الحكمة ويوصلوها إلى الناس ، وبهذا الوجه قال تعالى :

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ (٢)

---

(١) يقول جارودي (وليس «التوحيد» كذلك دعوة إلي التسليم (بوحدة الوجود) هذه المقولة التي تتعارض مع (التسامي) وتحول دونه وتجعل العالم لدي المسلم عالماً بلا إله (ص ٥٣ ما يعد به الإسلام.

(٢) نفسه ص ٢٣

ويتبين من هذا الشرح والتفسير مدى الشروط والحدود التى وضعها أصحاب تفسير (الخلافة) بأنها عن الله تعالى ، فهى مقيدة بقيدين :

الأول : بطاعته عز وجل وإقامة العدل بين الناس .

الثانى : إن الخلافة بهذا المضمـون لون من ألوان الابتلاء والاختبار لبنى آدم ليتحقق مدى عـبوديتهم لله تعالى ، ومع الاعتقاد الجازم بأنـه سبحانه وتعالى حى قيـوم شهيد لا يمـوت ولا يغيب ، فلا يجـوز أن يكون أحد من بنى آدم خلفاً له ، فإنه لا يقوم مقامه - عز وجل - أحد . بل إنه سبحانه وتعالى يكون خليفة لغيره كما قـال رسول الله ﷺ «اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل . . اللهم أصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا »رواه مسلم .

كمـا قال رسـول الله ﷺ فى حـديث الدجال أن يخرج «وأنا فيكم فـأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فـأمرؤ حجيج نفسـه ، والله خليفتى على كل مؤمن » رواه البخارى [1].

جارودى شاهد صادق على العصر :

ألفنا منذ مدة طويلة قراءة الأوصاف النمطيـة للعالم المعاصر التى تعطيه لوناً وردياً،وتضفى عليـه من الصفات مـا يخلب اللب : فهـو عصر التكنولوجـيا والفضاء واختصار المسافات والمعلومات وتحول العالم إلى قرية واحدة ، وعصر الديمـقراطيـات والحريات وحـقوق الإنـسان . . إلخ . . مما دفع بفـوكوياما الأمريكى إلى إعلان [نهاية التاريخ] . !

وكـأنه ليس فـى الإمكان أبدع مما كـان ، فلينـضم سكان الأرض إذن إلى القافلة الأمريكية لأنه هو الطريق الوحيد للسعادة والرخاء والتقدم والرفاهية !!

ويفاجئنا جـارودى بنظرة أخرى على الضد ولها صورة واقعـية قد تنزع من النفس روح التفـاؤل التى تمارسها الأقـلام المفتونة بإنجـازات حضارات العـصر ويأتى جارودى ليكشف الحقيقة إذ تحولك من (التهويمات) فى العبارات المطاطة المنتفخة كبالونات الهواء التى سرعان ما تنفجر عند أقل شكة دبوس صغير .

---

(١) نفسه ص ٢٣ .

ونعنى بحقيقة العالم المعاصـر المتمثل فى أجهزة الإعلام التى تصنع الإنسان (المبرمج) ـ والاقـتصـاد الذى تسيره الشـركات المتعـددة الجنسيـة ـ والانحدار اللاأخلاقى ممثلاً فى المسرحيـات والجنس والعنف والجريمة ويُضطهد الرجل فى قلب القارة الـرافعة لراية الحـرية عندما (يتـحدث عن الاستـخدام السـياسى الصهيونى لأسطورة الهولوكوستب ـ ضحايا اليهود فى معسكرات الاعتقال أيام هتلر ـ ويعزو تضـخيم أرقام الضحايـا إلى الخدعة « إيدولوجية لنـتمويه» ومن أجل تبرير سياسة إسـرائيل العدوانية التوسعية لقد نـسى هؤلاء حقاً انها صورة تدعو إلى الإكتئاب ، ولكن ما حيلتنا وهى صادرة من فيلسوف مدقق يصدمك بالواقع الذى لا ترضاه ،ولكن لا يخدعك ؟

فمن أقواله :

إن هناك ٦٠ مليون هندى أمريكى تعرضوا للإبادة وأكثر من ١٠٠مليون من السود الأفـارقـة نالوا نفس المصيـر ، وإن هناك ١٧ مليـون سلافى قـتلوا فى الحرب العـالمية الثانـية . .) كذلك دُكت مـدينتا هيروشـيما ونجـازاكى بالقنبلة الذرية.

ويقول عـقب غارة اسرائيل على لبنان الأخيـرة (مايو سنة ١٩٩٦) « أين كان هؤلاء الذين أصابهم الفزع من كتابى(يقـصد كتاب الخرافات التى اسست عليها السياسة الاسرائيلية الذى عرضه للمحاكمة) وقت أن انهالت القنابل على رؤوس المدنيـين الأبرياء فى لبنان ؟ أين هم دعـاة الدفاع عن حـقوق الإنسـان الذين لم أسمع منهم صوتاً واحداً يعتـرض على هذه الجرائم البشعة فى حين ظهروا فجأة ضدى وضد كتابى .[1]

- وفى نظرته لإسرائيـل يرى فيها خطـورة على الالـم الثالث بأكملهوليس العرب والإسلام بدليل أن ٢٠٪ من سكان العالم فى أوربا وأمريكا أصبحوا يتحكمون فى مصادر أقتصاد ٨٠٪ من سكان العالم.
- صندوق النقـد الدولى الذى تتـحكم فيـه ١٣ أسـرة يهودية ويفـرض

(١)مقال جارودي يواجه الأسطورة بقلم الأستاذة زينب متصر جريدة الأحرار القاهرية ٢٣/١٢/١٤١٦هـ ١١/٥/ ١٩٩٦م وينظر أيضـاً (حوار مع جـارودي) الذي أجراه الأسـتاذ علي الشـوباشي في باريس ونشر بمجلة (التصوف الإسلامي) بالقاهرة محرم ١٤١٧ هـ/ يونيو ١٩٩٦م

شروطه اينما شاء وكيفما يرى.

[ان إحصاءات اليونسيف تقول إن هناك ١٥٪ من أطفال العالم الثالث يموتون يوميا نتيجة عدم وجود مأكل ومشرب وقليل من الدواء ١٥٪ من الأطفال مع عدد البالغين يشكلون ٤٥٪ من سكان العالم يموتون يوميا... أى أن تطور أوربا وأمريكا جاء على حساب العالم الثالث الذى يبلغ فيه عدد الضحايا الموتى كل يومين ما يوازى عدد ضحايا هيروشيما فى اليابان.

هذه هى المذبحة الحقيقية التى نتعرض لها يومياً »[1]

***

(١)مقال جارودي يواجه الأسطورة بقلم الأستاذة زينب منتصر جريدة الأحرار القاهرية ٢٣/١٢/١٤١٦هـ ١١/٥/ ١٩٩٦م وينظر ايضاً (حوار مع جارودي) الذي أجراه الأستاذ علي الشوباشي في باريس ونشر بمجلة (التصوف الإسلامي) بالقاهرة محرم ١٤١٧ هـ / يونيو ١٩٩٦م .

(٢) في حديث خاص مع الأستاذ عبد الرزاق عكاشة في باريس (جريدة الأحرار القاهرية) ١٦/ محرم ١٤١٧هـ٣يونيو١٩٩٦م.

الفصل الثاني

بعض آراء جارودي

في ضوء عقائد أهل السنّة والجماعة

أ ـ عقيدة (الإبراهيمية) : أو وحدة الأديان.

(من هنا يذهب جارودي إلي القول بوحدة الأديان ، إذ يري الإسلام انفتاحاً شاملاً علي كافة الديانات ، التي ليست في نظره إلا لحظات من العطاء في الملحمة الإنسانية. . . .)[1]

ويفخر جارودي بأنه أسس في أسبانيا (المتحف الإسلامي ـ وهو المتحف الإسلامي الوحيد بها ويزوره الآن مائة ألف شخص كل عام في قرطبة ، افتتحته بندوة لأبناء إبراهيم ، وحرصت علي أن يحضره ممثلون عن الأديان السماوية الثلاثة) [2]

وقد أسس جارودي هذا المتحف عن اقتناع بوحدة ما سماه (الأديان السماوية الثلاثة) لأنها تلتقي عند (العقيدة الإبراهيمية) نسبة إلي إبراهيم عليه السلام مع أن الحقيقة المعتبرة في عقائد الإسلام أن الدين عند الله الإسلام كما سنوضح.

إن الرغبة المخلصة عند جارودي لا تكفي للإقناع بالانطواء تحت عقيدة (الإبراهيمية) ـ أو إجراء (حوار بين الأديان) . وذلك في ظل التعاون الشديد والفارق الشاسع بين مكانة الكنيسة الكاثوليكية أو نفوذ الصهيونية في عالم اليوم . والقضية تحتاج إلي شرح وبيان :ـ

فنعرض أولاً لمخالفة الفكرة لعقيدة التوحيد الإسلامية ثم نلقي الضوء علي الواقع السياسي والديني في عالم اليوم.

الدليل الأول: نقض فكرة الإبراهيمية لمخالفتها لعقيدة التوحيد الإسلامية :

وربما أتت الشبهة من اعتقاده أنهم جميعاً ينتمون إلي إبراهيم عليه السلام.

وقد فات جارودى معرفة الآيات القرآنية وهى قاطعة الدلالة ، لا تحتمل أى تأويل ، ونحيله إلى أحد التفاسير المعتمدة عند أهل السنة :

قال تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّـهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

---

(١) ص١١٧ من كتاب (لماذا أسلمت ؟) بقلم محمد عثمان الخشت ـ كتبة القرآن ـ٦ ١٤هـ ١٩٨٦م

(٢) حوار مع روجيه جارودى (أنا واليهود والصهيونية والإسلام) حوار أجراه فى باريس ' على الشوباشى ونُشر بمجلة (التصوف الإسلامى) بمصر العدد (١) السنة (١٩) [محرم ١٤١٧هـ يونيو ١٩٩٦م. .

طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣] وقد أورد القرطبى فى تفسيره لهذه الآية قول الكلبى : إن كعب بن الأشرف وأصحابه - وهم يهود - اختصموا مع النصارى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : أينا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبى - ﷺ - كلا الفريقين برئ من دينه . فقالوا : لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك ، فنزل - ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ؟ ﴾ يعنى يطلبون[1] وفي قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

قال الإمام القرطبى :- نزّهه تعالى من دعاويهم الكاذبة ،وبيّن أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركاً والحنيف : الذى يوحّد ويحج ويضحى ويختتن ويستقبل القبلة [2]

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقد أتى القرطبى بقول أبى بكر الأنبارى تفسير الرسول - ﷺ - لهذه الآية أنه كان يقرأ (إن الدين عند الله الحنيفية لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية)..

وفى تفسيره قوله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ قال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى وهو توضيح لنصارى نجران ، وقال الربيع بن أنس: المراد بها اليهود ، ولفظ الزبير أوتوا الكتاب يعم اليهود والنصارى أى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يعنى فى نبوة محمد ﷺ ﴿ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يعنى ببيان صفته ونبوته في كتبهم .[3]

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٣٦٩ طبعة دار الشعب بالقاهرةم جمادى الأول سنة ١٣٨٩ هـ اغسطس سنة ١٩٦٩م .

(٢) نفسه ص ١٣٥١ .

(٣) تفسير القرطبى « الجامع لأحكام القرآن » ط دار الشعب ص١٢٨٥/١٢٨٦ جمادى الأول ١٣٨٩هـ يوليو١٩٦٩م .

في تفسير القرطبى :

قال مجاهد والسدّى نزلت هذه الآية فى الحارث بن سويد أخو الجُلاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتد عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات [1]

يتبين لنا مما سبق أن الرسول ـ ﷺ ـ جاء بالرسالة الأخيرة والمصححة للإنحرافات التى وقع فيها اليهود والنصارى .

وكان جارودى قد تبين له من دراسة العقائد الدينية وقت البعثة المحمدية (إن المضمون الدينى لدى ظهور النبى ـ ﷺ ـ كان خليطاً من الطقوس اليهودية الجامدة ، مضافاً إليها تعاليم الطوائف المسيحية التى لا يفهمها عامة الشعب والتى هى بعيدة كل البعد عن حياتهم الداخلية [2] وكذلك المعتقدات الوثنية الخالية من أى معنى إنسانى .

الدليل الثانى:من الواقع العملى أى السلوك الدينى والسياسى وتاريخياً فكيف يعود جارودى فيوّحد بين هذا الخليط من العقائد ؟! فى عالم اليوم.

لانظن أن جارودى بلغت به السذاجة حدًا يجعله يقتنع بأن مجرد انشاء متحف بهذا الشكل سيؤدى تلقائيا الى إزالة الخلافات والعوائق المترسبة طوال القرون ، المقترنة بأعمال القتل والإبادة للمسلمين ، ونكتفى بذكر أبشعها بما حدث باسبانيا تاريخيا وما حدث ويحدث فى العصر الحالى بالبوسنة وفلسطين والأقليات الإسلامية فى دول العالم (المتحضر) وليتها كانت أعمالا عفوية وتعبيراً عن انفجارات نفسية بسبب العوامل العنصرية أو الرغبة فى السيطرة السياسية والاقتصادية الطارئة، بل تدعمها عقائد وأيديولوجيات ثابته،وإلا فكيف يفسر جارودى (على سبيل المثال لا الحصر) المشروع الذى قدّمه الفيلسوف (ليبنتز) إلى الملك الدولة:لويس الرابع عشر محدّدا الغرض] استعادة بحر الإسكندر فالسيطرة على البلاد الإسلامية من خلال اغتصاب (هكذا)

---

(1) نفسه ص ١٣٧٠.

(2) ص ٣٠من كتاب (الإسلام دين المستقبل) ترجمة عبد المجيد بارودي ـ دار الإيمان بيروت ـ دمشق ـ سنة ١٩٨٣م.

مـصر وكـر الإسلام ودعـوة (دار جنسون) إلى حلف مـقدسى أوروبى لغـزو الأراضى الاسلامية و تمسيح المسلمين.][1] ويضيف مؤلف كتـاب (صليبة إلى الأبد) وقائع المؤتمر المخالفة لروح العصر بقوله (وعلى نقيض ما بدا من تحرر الفكر وبخلاف المنتظر من روح العصر.. تحاول اوروبا أن تحقق ما فوتته عليها القرون تستوحى حقدها الموروث ، ففى مدينة برلين سنة ١٨٧٨ م وحال مائدة (مؤتمر برلـين) كان أو روبيو العـصر الحـديث يخفون وراء الظهـور صليب التـعصب الذى كـان آباؤهم فى العـصـور الوسطى يبـرزونه على السطح .. واتفقوا على (تشريح) الفريسة الإسلامية [2]

النفوذ الدينى والسياسى للكنيسة العالمية .

يقول د/ فؤاد حسن فخر الدين العالم الأندونيسى الخبير بطرق التبشير التى عانت منه طوال عصر استعمار بلاده (أكثر من ثلاثة قرون).

(والمسيحية دوليـة تنظمها الفاتيكان والبابوية) [3] ولم يؤسس هذه الفكره من فراغ ولكن بناء على متـابعة الهيكل التنظيمى العالمى للفـاتيكان حيث عين البابا (فى كل الأمكنة الاسـتراتيجيـة بابوات فلهم مظهر حكومى ويخضـعون لحكومة الفاتيكان فحـسب ، ويمكن القول انه حكومة داخل حكومة فى تلك الأمكنة) [4]

ويستطرد فى وصف الـفاتيكان بما له من قوة سـياسيـة واقتصـادية حيث له تمثيل دبلومـاسى يقوم على رعايـة ابناء الدين المسيحـيى ويعتبـر هؤلاء الأتباع أنفسهم رعايا الفاتيكان الروحيين يخضعون لها قلبا وقالبا .

كما للفاتيكان ثروات لا تعد تنفق منها بسخاء فى التبشير والتنصير ، ولهم فى جبال الهند وفى أدغال اندونسيا وأحراش أفريقيا وإيريان الغربية .لهم هنَاك قوة جوية وَشَبَكة مواصلات [5] !

وباستعراض الدكـتور فؤاد فخر الدين لتاريخ الاستعـمار منذ القرن السادس

(١) صـ٤١١ / ٤١٢ من كتاب « صليبية إلى الأبد » ، عبد الفتاح عبد المقصود ..
(٢) نفسه صـ ٢٢٨ / ٢٢٩ ط الهيئه المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ م .
(٣) صـ ١١٧ من كتابه (مستقبل المسلمين) مطبوعات الشعب. سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٦٧م بالقاهرة .
(٤) نفسه صـ ١٣٥ . (٥) نفسه صـ ١٣٥ / ١٣٦.

عشر الميلادى ومـا فعلته هولندا والجلترا وفرنسا والبـرتغال والدانمارك فى البلاد المستعمـرة يبين له كيف اندمجت المسيحـية مع الاستعمار بحجـة عالمية رسالة الكنيسة بمقولة :

[لنا الرجاء العظيم والغيرة القبلية لتـوصيل الإنجيل وتقديم رسالته الى كل أجزاء العـالم] (١) وقد اقـتبس المؤلف مقـتطفات من كتـاب : جون فوسـتر ترجمة القس مـينس عبد النور ، قصة انتـشار المسيحية بالاشـتراك مع المجمع المسيحى للشرق الأدنى ، مطبعة النصر بشبرا ص ١٠ ـ ١٣.

وفى تحليل الدكتـور فؤاد فخر الدين لكتاب (انتـشار المسيحـية) يذكر أن مؤلفه تحدث فى نهايته عن « الكنيسية العالمية » فيقول (لقد تتبعنا أخبار امتداد المسيحيـة فى بلاد آسيا وأفريقية وكما اشـتركت كنائس أوروبا وأمريكا فى هذا العمل شاركت أيضا فى التطورات الأربعة التالية) .(٢)

ويقصد بالتطورات الأربعة :

١- النمـو الطائفى بالنسـبـة للعـالم ، حـيث تأسس سنة ١٨٧٥م الاتحـاد المسيحى العالمى ويتبعه مؤسسات طائفية مما يؤدى إلى نمو فى عضوية الكنيسة .

٢- حركة الطلبة على نطاق عالمى .

٣- المؤتمرات المرسلية العـالمية بدأت بمؤتمر أدنـبره ١٩١٠ م الذى عـينّ لجنة تتـابع أعماله . . ثم أقيم مؤتمر فى أورشلم عام ١٩٢٨م كان سبب قيام حركة ملكوت الله فى اليابان وبرنامج السنوات الخمسين فى الصين .

٤- مجـلس الكنائس العالمى الذى أقـام مؤتمر بيـن أحدهمـا عام ١٩٢٥م والثانى عام ١٩٢٧م ثم وُضعت الخطط ١٩٣٩ لتأسيس المجلس فى جنيف. . وفى عام ١٩٤٨ م اجتمع مجلس الكنائس العـالمى فى امستردام لوضع دستوره الأول. . وقد حضـر ممثلون من كل قارة ، ومن كل دولة تقريبـا ، وقد تكلم الدكـتور جـون مكاى رئيس مجلس المرسليـات العالمى فـى الاجتـماع الأول لمجلس الكنائس فـقال [اليـوم نجد كنائس منظمـة فى كل بلاد العالم مـا عدا

(١) نفسه ص١٨٥

(٢) نفسه صـ ١٣٢/ ١٣٣ وينظر صـ٤٢ أسباب الضعف الإسلامى .

التبت وأفغانستان والعربية السعودية. . لقد صارت الكنيسة مسكونية لأول مرة فى التاريخ بالمعنى الحرفى ، تصل حدودها إلى كل أقاصى المكونة . .) [١]

لم يعد الدين اذن ـ كما يذكر الدكتور حامد ربيع متقوقعاً داخل الصومعة ـ أو المتحف الذى يفخر بإنشائه جارودى ـ بل خرج يباشر دوره بفاعليه ملحوظة فى السياسة المعاصرة :

دور الدين فى السياسة المعاصرة :

يقول الدكتور حامد ربيع :

[إيناع الظاهرة الدينية فى العالم المعاصر لا يعود الى الأعوام الأخيرة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، فالدين خرج من قوقعته التى فرضها على الفكر السياسى للثورة الفرنسية. . ومنذ ذلك التاريخ تكاملت نظرية كاثوليكية واضحة للحركة السياسية . محوَرها استمرار التقاليد السابقة من حيث الفصل بين المنظمات السياسيه والمنظمات الدينيه ولكن من جانب آخر خلق الأدوات المدنية التى تعمل بانصياع كامل لارادة الكنسية. ثم جاءت معاهدة اللاتيران لتخلق شخصا دوليا باسم مدينة الفاتيكان]. . إلى أن يقول:(والكاثوليكية السياسية ظلت فى تقدم مستمر حتى استطاعت أن تصبغ العالم الغربي بنفوذها وارادتها). .

وعن اليهودية يرى أنها (استطاعت أن تخلق الصهيونه السياسية ومن خلالها تصل الى بناء الدولة الاسرائيلية .

ولكنه فى أسى يحاول ايجاد مكان للاسلام بين هاتين القوتين بعد هذا التطور ، فيقرر ان الاسلام ظل هو الدين المتقوقع حول نفسه) [٢].

وبعد أن يرصد بعلمه الغزير ووعيه السياسى الكم الاسلامى وخصائصه على مستوى العالم ، ينتهى الى القول بأنه (من الصعب الحديث عن تنسيق أو تخطيط لسياسة اسلامية على مستوى الفاعلية الدولية) .

(١) ص ١٩٣ نفسه مع اختصار المادة من صـ ١٨١ الى صـ ١٩٣ .
(٢) ص ٢٤ من كتابه . الاسلام والقوى الدولية دار الموقف العربي سنة ١٩٨١ م بالقاهرة .

كما يرى انه لا يوجد ما يسمى بالجبهة أو الكتلة الاسلامية) [1]

وأمام هذه الدراسة المستوعبة ، من عالم السياسة المخضرم لايسعنا إلا هذا التعليق الموجز :

لا نظن أن جارودى بدوره غافلا عن استخدام الدين فى السياسة على النطاق الدولى . وبهذا الواقع المتردى لأحوال العالم الإسلامى يصبح من السذاجة الاقتناع بان مجرد إنشائه للمتحف باسبانيا سيؤدى دوراً فعالاً فى الحوار بين الأديان بل . . ، سيصبح بمثابة نوع من التخدير والاستسلام للقوى الدولية التى تملك عناصر القوة لتوجيه والسيطرة الاقتصادية والسياسة والإعلامية . ان اقتراح الفيلسوف الكبير من توحيد الأديان غير مقنع فى ظل حركات العداء الشديدة للاسلام والمسلمين ، فضلا عن الاختلاف الجذرى فى العقائد والقيم والأهداف كما شرحنا وإلا ، فهل المطلوب الجلوس على مائدة الحوار بينما يرفع المتدينون فى الغرب السيف على الرقاب ؟ ويُذبح المسلمون بأيدى الصرب فى البوسنة بينما العالم المسيحى يتفرج . بل يشمت ـ إلا قلّة ضئيلة لا تكاد تُذكر ، لأن ضميرها مازال ينبض بالحياة ؟ !

خير لأمة الاسلام أن تعرف جيّدا الأخطار المحدقة بها ، فتتيقظ وتتأهب ، وتلم شملها حكاماً وشعوباً ودولاً ، خير لها من أن تقبل التخدير بالكلام المعسول والعهود والمواثيق تحت شعار وحدة الأديان والحوار بينهما ـ بينما السيف مُصلّت على رقبتها للإجهاز عليها ، وإلا فإن التاريخ ملىء بنقض العهود ، والمثال الصارخ ما حدث فى إسبانيا عندما حوصر المسلمون بمدينة غرناضة ، وطلبوا الصلح ، وعقدوا مواثيق مع أعدائهم بعد أن مكنوهم من غرناضة ، ولكن النصارى نقضوها واحدا فواحد(إلى أن آل الأمر بهم على التنصر . . وقد صدر الأمر من سلطان النصارى بقتل جميع المسلمين إلا من تنصر)[2] وفى ضوء ما تقدم نعود فنسأل :

كيف يعيش المسلمون فى ظل عقيدة وحدة الأديان التى يتبناها جارودى

---

(١)نفسه صـ ١٣٢ / ١٣٣ وينظر صـ٤٢ أسباب الضعف الإسلامى

(٢) مفتريات اليونسكو على الاسلام ، محمد بن الله السمان صـ ٤٩ ط المختار الاسلامى بالقاهرة ١٣٦٩ هـ/ ١٩٧٦ م . .

وهم الضحايا فى كل بلاد العالم والآخرون يملكون السلطة والقوة والمال والسيطرة الدولية ؟ ! ولا يخفى عليه الصهونية التى تعيش أزهى عصورها وهو أحد ضحاياه ، ونفوذ الفاتيكان وحملات التبشير التى يرعاها ويدعمها ؟ كيف يدور الحوار الدينى أو الحوار بين الحضارات والمسلمون مستهدفون للمذابح ؟ وحملات الطرد، والدعايات الكاذبة العدائية ،وأخيراً نقول : إن نداء عقد مؤتمرات للأديان ليس ابن اليوم ، إذ ظهرت الحاجة إليه لمجابهة الماركسية الملحدة وخطر قيام الحروب الذرية والنووية . ونذكر على سبيل المثال الاقتراحات العملية التى قدّمها العلامة الشيخ محمد أبو زهرة حينذاك ، وهى أكثر قبولاً لواقعيتها من أحلام جارودى الوردية .

ونلخص الأفكار الرئيسية للشيخ أبو زهرة التى بدأها بتعريف التدين الحقيقى (بأنه الذى يشعر كل إنسان فى الأرض بأن فوقه قوة قاهرة عالية رحيمة تحب السلام بين الناس ، وتدعوا إليه وتحملهم عليه ، وتشعر الناس بالمحبة الإنسانية السمحة الكريمة ، وتحث على الائتلاف الإنسانى العام ، وتجعل المودة بين الشعوب هى الرابطة . .) (١)

وفى ضوءهذا التعريف يرى إبعاد اليهود من الحوار لأنهم يتدينون بالعداوة الإنسانية وتخريب الأرض على من فيها انتقاماً ممن أذلوهم وفرقوهم فى الأرض ، وأولئك هم أكثر اليهود .

وبعد إسقاطهم من الحساب تصبح الأديان التى تتقاسم العالم أربعة : الإسلام والمسيحية والبوذية والهندوسية .

وبعد استعراض روح السلام والمحبة التى تدعو إليها هذه الأديان اقترح الشيخ أبو زهرة استبعاد قضايا أصل الأديان وتاريخها وحقائقها وباطلها وصادقها من النقاش ، وإنما (ينحصر النقاش فيما اتفقت عليه الأديان من وجوب إنقاذ الإنسانية مما عساها تتردى فيه من تخريب وفساد ليس له نظير)، واقترح المبادئ الآتية فى المؤتمر الجامع للأديان الأربعة وهى باختصار :

(أ) إنه من يحارب بالأدوات النووية يعد خارجاً عن الدين غير مؤمن به .

(١) مجلة (لواء الإسلام) ـربيع الأول سنة ١٣٨٠هـ ـ اغسطس سنة ١٩٦٠م ص٤١٨ .

(ب) وإن الإنسانية جميعاً سواء فى أصل الحقوق والواجبات ، فلا فرق بسبب اللون ولا بسبب الجنسية ولا بسبب العنصرية ، ولا بسبب الاختلافات الدينية .

(ج) وإن العدل شريعة خالق السموات والأرض وإن الله تعالى كتب العدل على نفسه ، فلا يصح للشعوب أن يعاونوا أحداً على ظلم ، ولا أن يسعوا لتأييده . .

(د) وإن الوطنية الجامحة التى تستبيح الرذيلة فى الخصوم لا يقرّها دين من الأديان التى تدعو إلى المحبة والرحمة فإن كل الأوطان أرض الله تعالى . . وليس معنى ذلك محو الوطنية ، بل وضعها فى إطار الإنسانية والعدالة وظل الحضرة الإلهية والإيمان بالله تعالى وحماية خلقه . .

(هـ) وإن الوفاء فى المعاهدات يجب أن يحترم إذا كانت المعاهدات بنيت على العدالة وعلى الاختيار الكامل ، كما إنه يجب أن تكون المعاهدة مع المغلوب قائمة على العدل ، بل على الرفق ، فلا يقال فى السياسة الدينية «ويل للمغلوب» ولكن يقال : العدل مع المغلوب شريعة الأديان وشريعة الإنسان وشريعة الفضيلة . .

(و) وأن ينظر إلى الإنسانية على أنها وحدة . فالناس فى لغة الأديان أمة واحدة ، كما قال القرآن الكريم ﴿وكان الناس أمة واحدة﴾ وإذا كانت الإنسانية وحدة كاملة ، وإن ظهر اختلاف الألوان والألسنة والأوطان ، فإن خيرات الأرض كلها للإنسانية كلها ففائض كل دولة من أغذية هو للإنسانية المحرومة منها ، وحرام فى كل دين أن يُحرق قوت أو يُرمى فى البحر ، وطائفة من بنى الإنسان تريده قوتاً ، أو يصعب عليها الحصول على ما تحتاج إليه من قوت . . وعلى الإنسانية أن تتضافر على بقاء العامر وإحياء موات الأرض وتدفع غائلة الجوع عن بعض بنى الإنسان ، فإن ذلك ما تدعو إليه الأديان ، وقد قال محمد ﷺ « ما مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كتب له به صدقة »[1]

(١) الاسلام والغرب للدكتور محمود زقزوق ص ٩٠ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

هذا هو المؤتمر المقترح من المنظور الإسلامى الصحيح .

وعلى نفس المنوال ، نسج الشيخ جاد الحق رحمه الله (شيخ الأزهر السابق) الذى عايش مآسى المسلمين فى البوسنة والهرسك وفلسطين ولبنان وكشمير والفلبين وغيرها الإسلامى بما فيه ، ومحسًا بنبض آلام المسلمين وجروحه ،وعلى درجة عالية من الحنكة والوعى السياسى عندما قال فى ختام كلمته لمؤتمر برلمان ديانات العالم الذى عقد فى شيكاغو بأمريكا فى شهر أغسطس سنة ١٩٩٣م قال :

(لنتذكر جميعاً أنه لا يمكن أن يكون هناك سلام واحترام بين الأمم والشعوب والديانات المختلفة فى نفس الوقت الذى يُذبح فيه أتباع إحدى الديانات الكبرى من أتباع دين آخر . . وإذا سارت الأمور على هذا النحو، فلا معنى لشعار تعايش الأديان. ولا جدوى من المناداة بإرساء مبادىء السلام بين الشعوب والأمم ما لم يحترم دين كل أمه من قبل الأمم والشعوب الأخرى)[١]

ولولا خشية الإطالة لأتينا بتحليلات الدكتورة زينب عبد العزيز لخطاب بابا روما بكتابها (تنصير العالم) إذ درست الخطاب بعناية فائقة ، وشرحته وشرّحته، ورائدها ـ كما أوردت بصدد كتابها ـ قول الشاعر الفرنسى بيجى «من يعرف الحقيقة ولا يجاهر بها بأسلوب عنيف فهو يتواطأ مع الكذابين والمزيفين» .

وتوجه الدكتورة الفاضلة تحذيرها من (مصيدة) الحوار للمسلمين والمسيحيين الشرقيين معاً لتفادى اقتناصهم داخل (العقيدة الكاثوليكية الفاتيكانية) ، مؤكدة أن اللجوء إلى الحوار هو وسيلة يتم بها عملية التنصير (بأقل قدر ممكن من المقاومة) . . أى اللجوء إلى الطُعم الجديد الذى يُستخدم كغطاء ، وعلى حد قول أوليفييه كليمون «إن هذا الحوار ـ التبشير عبارة عن عملية تغليف مذّهبة عصرية لحِبّة قديمة كانوا يفرضونها قهراً على الشعوب فيما مضى[٢] .

---

(١) ص ٩٧ من كتاب (تنصير العالم ـ مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثانى) للدكتوره : زينب عبد العزيز أستاذ الحضارة ورئيس قسم فرنسى بكلية الآداب ـ جامعة المنوفية (ط دارالوفاء المنصورة). ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(٢) نفسه ص ١٠٤ .

وترى أن رسالة البابا الأخيرة فى عام ١٩٩٣م ما هى إلا خطوات تنفيذية لقرارات المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى عام ١٩٦٥م (بالتضافر مع المخابرات المركزية الأمريكية والموساد ، وهو: ضرب اليسار فى الثمانينات ، وضرب الإسلام فى التسعينيات ، وتنصير العالم تحت لواء كاثوليكية روما عند بداية الألفية الثالثه) [١]

والحصيلة النهائية لهذا الكتاب الفريد تجعلنا نؤكد ضرورة قراءته لكل من تراوده نفسه قبول الحوار ، على الأقل ليكون على حذر .

كما أننا أصبحنا بعد الاطلاع على الجنايا التى كشفتها العالمة الفاضلة أكثر تقديراً لموقف الشيخ محمد أبو زهرة الذى كان سباقاً لوضع الحدود والشروط وهى وحدها التى تصلح مدخلاً للحوار .

وأخيراً ، فإننا نضم صوتنا إلى صوتها الذى يصرخ بين السطور بقولها (فإلى الذين يغوصون فى الاستسلام بدرجة تستفز العقل والضمير ، وإلى الذين يساعدون على اختراق الأمة العربية والإسلامية ، وإلى تمييع القضايا وخلط الأوراق تحت زعم الحوار والسلام ، لا يسعنا إلا أن نقول : اتقوا الله فى أنفسكم وفى دينكم الذى تساعدون على اقتلاعه) [٢]

***

(١) نفسه ص ١٠٤

(٢) نفسه ص ١١١ .

ب ـ السلفية

بلغت دهشتنا غايتها عندما طلع علينا جارودي بكتابه (أصول الأصوليات والتعصبات السلفية) الذي ساوي فيه بين من سماهم المتعصبين السلفيين، ووضع في وصف واحد التكنوقراطيين أو الستالينيين أو المسيحيين أو اليهود أو المسلمين محذراً منهم جميعاً لأنهم يشكلون في رأيه أكبر المخاطر علي المستقبل! وفيما يتصل بالمسلمين كتب بحثين أحدهما بعنوان (التعصب السلفي الإسلامي الجزائري) ، والثاني بعنوان (التعصب السلفي الإيراني).

ولأول وهلة يتضح افتقاد الدقة في الوصف والحكم لأن المعلومات الأولّية التي لا شك يعرفها جارودي أن مذهب السنة السائد في الجزائر يختلف عن مذهب الشيعة في إيران وأن (السلفية) في عقائد الإسلام وحضارته لها مدلولها الخاص، كما سنوضح بعد قليل ، حيث سندلل علي تعريفها الذي كان غائباً تماماً عن ذهن فيلسوفنا الكبير عندما صاغ تعريفه بقوله (فالتعصب السلفي يتمثل في تعريف عقيدة دينية أو سياسية أو غير ذلك في الشكل والإطار الثقافي أو الذاتي الذي كان لها في فترة زمنية سابقة من تاريخها ، وربطها بهذه الفترة ، أي هي الاعتقاد بحقيقة مطلقة ثم فرضها) (١)

وقبل الدخول في المناقشة والتوضيح نحب أن نسجل رأيه الصحيح في نظرته للحضارة الإسلامية إذ يقول بالحرف الواحد (لا يمكن أن تقوم نهضة للإسلام في يومنا هذا إلا إذا اكتشفت كل أبعاده ، تلك التي صنعت عظمته في بدايته وفي فترات ازدهارها حتي القرن الثاني عشر الميلادي) (٢).

أما التعريف الصحيح المطابق لفهم الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة فقد حدّده الإمام الغزالي رحمه الله تعالي ، في الصيغة المحبوكة علمياً كالآتي (السلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعا من جزيرة العرب ، وتحيا علي نحو اجتماعي معين. إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون ، وتعمل ولاءها لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله تعالي ، ودون نظر الي عرق أو لون ، وفهمها

---

(١) أصول الأصوليات والتعصبا ت السلفية ـ ص٩ مكتبة الشروق يناير سنة ١٩٩٦م
(٢) نفسه ص ٤١ .

للإسلام وعملها له يرتفع الي مستوي عمومه وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه علي العقل [1]

ونأتي أيضا في هذا التمهيد لنعرض لرأي أوجست كونت الفيلسوف الوضعي الشهير صاحب فكرة تدرّج المجتمعات من الطور الديني أو اللاهوتي ثم الي الفكر الفلسفي ثم الي العلمي الوضعي ، ويقتضي سياق مذهبه أن المرحلة الأخيرة هي مرحلة النضج والتقدم النهائي للإنسانية ، وأن أي (رجوع) إلي مرحلة سابقة يُعدُّ من باب (السلفية) كأنه نوع من النكوص عن الرحلة المتطورة التي بلغتها البشرية.

واصطبغت بفلسفته الكثير من الدراسات الدينية والفلسفية والتاريخية الحضارية ، وكانت لها نفوذها علي عقول الكثير من المثقفين ، وربما تأثر جارودي أيضا بفلسفته عندما حكم علي (السلفية) في الأديان والأيدولوجيات بعامة .

وفي الدراسة المبتكرة للدكتور رشدي فكار تابع حياة كونت وخرج لنا بحقيقة كانت غائبة عنا إذ اكتشف أن كونت استثني الإسلام في نهاية حياته من قانونه المعروف.

قال كونت :ـ

« يمكن للشرق الإسلامي أن يحقق المرحلة الوضعية النهائية (يعني العلمية) بسرعة فائقة حينما يتجه مباشرة الي الهدف مختصرا الطريق بالقفز من الحالة الأولي (اللاهوتية أي الدينية) الي الحالة الثالثة (الوضعية) مستفيدا من تجارب الآخرين) مستنداً إلي مميزات يتفرد بها الإسلام خاصة التسامح وما سماه (عبقرية الإسلام) أي تأكيده المكانة السامية للفكر والعقل في المبادئ الإسلامية.

وهكذا استوعب كونت المرحلة الأولي المثالية لتطبيق الإسلام في المجتمع الأول، وهو ما نعنيه بقولنا السلف الصالح فهما للآية ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] وأخذ يقيس عليها

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص (١٢٠/ ١٢١) ط دار الأنصار بالقاهرة ١٤٠١هـ للشيخ/ محمد الغزالي .

المجتمعات الاسلامية بعدها. ويسجل الدكتور فكّار في دراسته الجديدة عن كونت عندما توسع في الإطلاع علي الإسلام ، يسجل ما رآه في نبينا محمدﷺ (رائداً) عريقا من أسمي رواد الروحانية ومتعرفاً علي الشئون الدنيوية أيضاً استطاع أن يكمل في زمن بسيط ما لا يستطيع غيره إتمامه في قرون طوال، خصوصا اتجاهه نحو العالمية في العصور الوسطي عبر حلول معقولة ومقبولة) ويقول الدكتور فكّار (لقد حاول كونت علي ضوء ما لديه من معلومات ، أن يقدم حكماً علي تطور المجتمع الإسلامي ، فبينما يتحمس لمرحلته الأولي يتحفظ كثيرا علي « التخريج الفارسي للإسلام » والاتجاه به نحو المفاهيم الفارسية الخاصة (ربما يعني التشيع)، ونفس التحفظ والنقد نجده بالنسبة للمرحلة العثمانية (صداقته لرشيد باشا لم تحل دون نقده للعثمانيين) و« كونت » يري أن العثمانيين (الأتراك) رأوا في الإسلام أولاً وقبل كل شئ دين سيادة مع أن طبيعة روح الإسلام الأصلية التسامح والمساواة (التعبير حرفياً لكونت) فالإسلام لا يسمح فقط بالتفريق بين الأجناس البشرية بل لا يسمح أيضا بالتمييز بين السيد والمسود ، ولعل هذا ما ساعد على قيام امبراطوريات اسلامية مزجت بين أجناس مختلفة من البشرية ، فكانت خير طلائع للدين العالمى ، فى شكل واقعى ملموس وليس مجرد دعوة إليه)[1].

وهذا الرأى جدير بالتقدير من فيلسوف وضعى غير موصوف (بالمثالية) ، ويدعّم الموقف الصحيح من مفهوم السلفية الاسلامى التى جددتّ روح الإسلام ممثلاً فى قيم التوحيد ، وتقدير الفكر والعقل ، وتحقيق المساواة بين االأجناس اجتماعياً وعالمياً. وسنعرض فى الفصل القادم لحقيقة السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية :

***

(١) كتاب (دكتور: رشدي فكار ونهاية عمالقة في حضارة الغرب) إعداد وتقديم : سيد أبودومة ط مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٩ـ١٩٨٩م صفحات ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥

الفصل الثالث

حقيقة السلفية
بين
العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية

***

إن مصطلح السلفيـة ـــ من وجهة نظر المؤرخين الغـربيين ـــ وعلى رأسهم أرنولد توينى ـــ له مـدلوله الخاص ، كـما سنوضح بعـد قليل ، ولا صلة له بمثيله فى دائرة الفكر الإسلامى ، لا من حيث المصطلح أو المضمون.

فمن حيث المصطلح الإسلامى ، أصبحت « السلفية » علماً على أصحاب منهج الإقتداء بالسلف من الصحابـة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى ، وكل من تبعهم من الأئمة ، كالأئمة الاربعة وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعـد رعبدالله بن المبارك ، والبخـارى ومسلم وسائر أصـحاب السنن ، وشمل شـيوخ الإسلام المتّبعـين لطريقة الأوائل ، مع تباين العـصور وتفجر مشكلات وتحـديات جديدة أمثال ابن تيمية وابن القيم ومـحمد بن عبد الوهاب وكذلك أصـحاب أغلب الاتجاهات السلفيـة المعاصرة بالجزيرة العـربية والقارة الهندية ومصر وشمال أفريقـيا وسوريا (وكانت ذو أثر واضح فى تنقية مفـاهيم الإسلام ودفعه الى الأمـام لمواجهة الحـضارة والتطور ، والكشف عن جوهر الثقافـة العربية الإسلامية الأصيلة القـادرة على الحياة فى كل جيل وكل بيئة) (١)

ومن حـيث المضـمون تعنـى «السلفيـة» فى الإسـلام التـعبـيـر عن منهج المستـمسكين بذروته الشـامخة وقمـته الحضـارية ، كما تـوجّهنا إلى النموذج المتحـقق فى القرون الاولى المفـضلة ، وفيهـا تحقق الأنموذج العلمى والتنفـيذ الفعلى ، ومنه استمـدت حضارة المسلمين أصولها ومقوماتهـا ممثلة فى العقيدة خضوعا للتوحيد ، وبياناً لدور الانسان فـى هذه الحياة وتنفيذاً لقواعد الشريعة الالهية بجوانبهـا المتعددة ، فى الاجتماع والاقتصـاد والسياسة وراويط الاسرة وفضائل الاخلاق .

والسلفيـة فى الإسلام كمصطلح تعنى أيضـاً فى مدلولها الخـاص ـ الاقتداء بالرسول ﷺ ، فان أمتنا تنفرد بمزية لا تشاركـها فيها أمة أخرى فى الماضى أو

(١) انور الجندى ـ الإسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب ص ٤٩ مطبعة الرسالة بدون تاريخ.

الحاضر أو المستقبل - تلك هي تحقق القدوة في شخصه ﷺ - إذ حفظت سيرته كاملة محققة كافة تفاصيلها، فنحن نعلم عنه كل شئ وفقا لما نقل إلينا في كتب وعلوم مصطلح الحديث بأدق منهج علمي عرفه المؤرخون .

وهكذا فإن السيرة النبوية حيّة في كياننا ، ونحن نعيشها كل يوم [1] وهي تمثل القمة للسلفيين ، وتطبيق الشريعة الاسلامية تمتد على طول الزمن لا يتعلق بعصر دون آخر ، بل إن كل جيل من المسلمين مطالب بتنفيذ أصولها النصية مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص عند مواجهة أحوال الحياة المتغيّرة كما هو معروف في أصول الفقه.

وقد ظهر المصطلح في مقابل انحرافات كانت تأخذ مجراها في تاريخنا العقدي والثقافي ، فبدأ لتمييز المثبتين للصفات الإلهية أي بينهم وبين النافين لها ، كما ذكر مؤرخ الملل والنحل - الشهرستاني - وظهر أيضا للتعبير عن أهل الفقه والحديث للمفارقة الواضحة بينهم وبين المتكلمين أو الصوفية أو الفلاسفة .كما أصبح علماً في العصر الحديث على أهل التوحيد منذ حركة محمد بن عبد الوهاب وعندما اشتدت المقاومة ضد الاستعمار الغربي ، فان مما يلفت النظر أن ماسينيون - المستشرق الفرنسي الشهير - وكان تابعا لوزارة الخارجية الفرنسية - أخذ يرقب الحركة السلفية بواسطة الامام عبدالحميد بن باديس ، ثم حذّر قومه في فرنسا مما سماه بحركة (السلفيين المتشددين) وما هي في حقيقتها الا انتفاضة اسلامية تبغي التخلص من نير الاستعمار الغربي ، وقد أعطت هذه الحركة لمفهوم السلفية بعداً جديداً في عصرنا الحاضر ، اذ أخذت على عاتقها - كما فعلت الاجيال السابقة من أصحاب نفس المنهج - المحافظة على أصالة الامة الاسلامية في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها حتى لا تتميع أو تهتز تحت ضربات الغزو الاجنبي.

ولم تكن هذه المرة الأولى لظهور السلفيين بهذا المظهر ، اذ حدث أيام الاشتباك العقلي مع خصوم الاسلام ، وكان الاسلام حينذاك في الموضع المهاجم المكتسح بفضل استمساك أتباعه به ، ويملكون العناصر الحضارية الأسمى ، اذ عندما نقل الفكر الغربي اليوناني ، أخذوا في دراسته وتحليله

---

(١) حسين مؤنس / الحضارة ص١٢٥

ومناقشته ورد أباطيله ثم قيس ذلك كله بمقياس العلم الإسلامى ومحك النقد الدينى ، فما وافقه قبله البعض وما خالفه رفض [1] وكان الرفض ظاهرا أكثر من غيره فى دائرة علماء السلف محافظة على شخصية الامة وأصالتها .

أما هذه المرة ـ أى فى العصر الحديث ـ فقد جاءنا الغرب فاتحاً مستعمراً وحاكماً مستعبدا فـفرض علينا لغته وفلسفته وتشريعاته ونظمه فى الاجتماع والسياسة و الاقتصاد والتعليم والتربية .

وكان من أبعد الخطوات أثرا فى حربه ضدنا أن أخذ علماؤه فى تقليب صفحات تاريخنا لاستخراج كل ما يسئ الى الاسلام الذى عرفه سلفنا الصالح وطبقّوه ونـفّذوه ، فاعلوا شأن الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والمعتزلة والصوفية المنحرفين والفلاسفة وغيرهم ، الى احياء أو تحبيذ ومدح نحل ومذاهب مختلفة ، إما بأسمائها المعروفة بها كالاسماعلية أو الباطنية أو تحت أسماء جديدة كالبهائية أو القاديانية والعلوية ، وبعث الالحاد من جديد وراء ستار العلمانية والماركسية والداروينية، مع نشر فكرة وحدة الأديان أو التقريب بينها وازالة الحواجز بين الحق بصورته الوحيدة ، والباطل بصوره المتعددة المتضاربة.

وازاء كل هذه الخطط والمحاولات ، فلن يظهر زيف هذه العقائد والنحل الا بطريقة السلف أنفسهم ، مهما تغيرت الأزمنة والأعصار، لانها طريقة موضوعية ذات أسس علمية منهجية ، تعتمد على النصوص الشرعية الموثقّة ، فهناك مسائل ثابتة لا تتغير كفطرة التوحيد ومخاطبة العقول البشرية للبرهنة على النبوات بعامة ونبوة نبينا محمدﷺ بخاصة ، والرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى كل ما انحرفوا به عن الشرع المنزّل ، مع دحض شبهات الملحدين والمشركين.

هذا فضلا عن ثبات الفضائل الأخلاقية ، وقواعد التحليل والتحريم فى المأكل والمشرب والملبس ، وتنظيم العلاقات الاجتماعية فى الأسرة والمجتمع ، واقامة العلاقات الدولية مع سائر الامم وفقا لاصول الشرع. ولقد أصبحت الحركة السلفية ، هى الحركة الكبرى التى جددت الدعوة الاسلامية ، ولولاها

---

(١) علال الفارسى / دفاع عن الشريعة ص ٨٧. منشورات العصر الحديث ـ بيروت ١٩٧٢م

لهان على الغرب أن يستعبد الشرق روحيا وفكريا الى أمد بعيد[1] و لآن نشرح مدلول السلفية من وجهة النظر الغربية

السلفية وفق التصور الغربى:

إن أردنا الوقوف على مدلول (مصطلح السلفية) الشائع فى مغزاه التاريخى والحضارى فان أمامنا التعريف الذى ارتضاه المؤرخ الانجليزى الشهير «أرنولد توينبى» وسندرك بعدها الى أى حد امتد مفهوم السلفية الينا فأصبح البعض منا يردده بنفس التعريف والتصور . وسنناقش رأيه لنصل الى مفهوم السلفية فى تاريخنا الاسلامى.

يرى المؤرخ البريطانى أن السلفية تعنى :

أولاً: ارتدادا من محاكاة الشخصيات المبدعة المعاصرة إلى محاكاة أسلاف القبيلة، وبعبارة أخرى تعد السلفية سقوطا من الحركة الديناميكية للحضارة الى الحالة الاستاتية التى يشاهد عليها الانسان البدائى فى الوقت الحاضر.

ثانياً : محاولة من المحاولات تبذل عند حدوث توقف اضطرارى لحركة التغيير، وينتج عن المحاولة رذائل اجتماعية تتوقف خطورتها على مدى نجاحها.

ثالثاً : أنموذج لتلك المحاولة الخاصة بـ (تثبيت) مجتمع منهار متحلل.

وهذا التثبيت هو الغاية المألوفة لواضعى (نظم المدينة الفاضلة).

ويستطرد ليشرح المجالات التى تعبر فيها السلفية عن نفسها ، فهى فى مجال السلوك تظهر فى :

أولاً: فى شكل نظم متكلفة وآراء تتشبث بالمصطلحات الفارغة أعظم من تغبيرها عن نفسها فى شكل أساليب لا تتصل بالوجدان.

ثانيا: تعبر عن نفسها فى المجال اللغوى فى معان تتصل بمنهاج ونمط يتسمان بالسفسطة.

ثالثا: وفى ميدان الدين ، يسهل على المراقب الغربى الحديث ملاحظة نزعة

---

(١) أنور الجندى = الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا ص ٣١ الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٥ـــ١٩٦٥م.

السلفية في نطاق حدود بيئته الاجتماعية الذاتية. فان الحركة الانجليزية الكاثولوكية تقوم مثلا على الاعتقاد بأن الاصلاح الديني الذي تم خلال القرن السادس عشر ، وحتى صورته الانجليكية المعتدلة ، قد ذهب في تطرفه مدى بعيدا ، ومن ثم تهدف الحركة الى استعادة استخدام آراء وطقوس كانت شائعة خلال القرون الوسطى ثم هجرت وألغيت أربعمائة سنة الغاء نعزوه الى عدم التبصر[1] وخضوعا للمفاهيم الغربية الشائعة انساق البعض وراءها ظناً أنها مطابقة للتصورات المماثلة في المجتمعات الاسلامية، فمالوا الى الغض من أصحاب الاتجاه السلفي في الاسلام ونفّروا الناس منه وقاموا بحملة تشهير ظالمة ضده.

وقامت معركة حقيقية (بين الذين يحافظون على دينهم ولغتهم وتقاليدهم وبين الذين عادوا من أوربا وقد فتنتهم بريقها فاستخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفّرون الناس منه)[2] ثم فشت العصبية لما هو وارد من هذه البلاد تحت دعوى التجديد، وأراد أصحابها تغيير كل شئ في الدين واللغة والادب ونظم الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، بدعوى نبذ القديم والبالي والأخذ بالجديد والحالي، وفيما يتصل بالعقيدة والدين، فقد ذهب أحد أصحاب فكرة التجديد الى وصف الدين الحي الحق بأنه ذلك المتحقق في الشعور المتجدد المتطور يتخذها وفقاً للازمان ، وتبعا للطابع العنصري المركب في هذه الأمة ، ولهذا فكل دين في أصله رمز قابل لما لا نهاية له من أنواع التفسير التي يبلغ الفارق بين بعضها حد التناقض .

وكلما تعددت التفسيرات لهذا الرمز ، وبلغ التعدد مرتبة عالية من الافتراق الرفيع، كان هذا من أوضح الشواهد على أن هذا الدين حي وخليق بالبقاء. وبناء على هذه النظرة للدين في صورته المتطورة المتجددة الرمزية المتناقضة، تصبح النزعات السنيّة أو السلفيّة وما اليها من حركات تحاول أن تأسر نفسها في ربقة الرمز بمعناه الظاهر الأولي ، تصبح عند صاحب هذا الرأي ، علل وأزمات نفسية في تاريخ الحياة الروحية لدين ما ، وعليه أن يبرأ

---

(١) توينبي= مختصر دراسة التاريخ ج ٣ ص ٢٦٠ وص ٣٨٥ وص٣٩٨

(٢) د. محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٢ وص٢٣٢ مكتبة الاداب بالجماميز - القاهرة ط ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م

منها قدر المستطاع حتى يستأنف تطوره الثرى فى مجال الروحية العليا. .[1]

وقد كان الإسلام هدفا - ومازال ـ لحملات شديدة تختفى وراء هذه المصطلحات وأمثالها للنيل من مقوماته الراسخة المحددة للحلال والحرام والخير والشر والفضائل والرذائل ، فاخترعت بدلها ألفاظ تنقصها المدلولات والضوابط كالقديم والجديد والرجعية والثورية واليمين واليسار ، والثبات والتطور ، والظاهر والباطن ، والحقيقة والرمز أو التأويل وكلها تتأرجح متذبذبة ذات اليمين وذات الشمال كبندول الساعة لا تستقر على حال !

وتجددت المعارك ولبست أثوابها متعددة منذ حملات الغزو الاستعمارى فى مطلع القرن الحالى مما دفع بأصحاب الاتجاه السلفى لمواجهتها وابطال مفعولها.

ومن هؤلاء الأمير شكيب أرسلان الذى علق على محاولات المتغربين بقوله:

قلما رأيت من هذه الفرقة إلا الأدعاء الفارغ والنزوع إلى الثورة على ما يسمونه بالقديم، وهم ينسون أن هناك مبادىء ثابتة وبديهات ليس فيها قديم وجديد ، وان الإثنين والإثنين أربعة من مائة ألف سنة فلا نقدر أن نعمل على ذلك ثورة ، وأن المقولات العشر مما لا تتناوله هذه الثورة ، وأن الثورة انما هى واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم [2] وعلى ذلك فان وحدة الدين كما عرفه سلفنا وكما ترشد اليه أصوله نابع من وحدة عقيدية واتفاق الغالبية عليها .

وعلى العكس فان الصور المتعددة لم تظهر الا عندما انقسمت الجماعة الاسلامية الاولى الى فرق وأحزاب ، كل حزب بما لديهم فرحون ، فتفتت كيان الامة وكسرت شوكتها.

ومنذ انشق الصف الاسلامى فى عصوره الاولى ، ظهرت الخوارج والشيعة والقدرية والمذاهب الكلامية والفرق الصوفية والمدارس الفلسفية وكلها ذات تفسيرات تتفاوت فى انشقاقها عن عقيدة الاسلام ذات اليمين وذات الشمال. ولم يبق العقيدة الاسلامية على أصالتها ونقاوتها ولمعانها الا الطائفة الظاهرة

---

(١) دكتور عبد الرحمن بدوى : شخصيات قلقة فى الإسلام ـ المقدمة صفحة (ى).

(٢) من كتاب مصطفى صادق الرافعى. . تحت راية القرآن ص ٣٩ المكتبة التجارية ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م

على الحق ، التى ظلت تعض بالنواجذ على الكتاب والسنة بالطريقة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه.

ويوضح لنا ابن تيمية مكانة الصحابة وسلامة منهجهم وتكامله بقوله:

(فهم صفوة الامة وخيارها المتبعون للرسول ﷺ علما وعملا ، يدعون الى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التى بعث الله بها رسوله ﷺ، وتدبر القرآن وما فيه من البيان ويدعون الى المحبة والارادة الشرعية وهى محبة الله وحده وإرادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله)[1] ﷺ.

ولقد تتابع السلف جيلا بعد جيل آخذين بطريقتهم ، ووقف علماؤهم بصلابة آزاء كل محاولات التجزئة والبتر والتأويلات الكلامية والتخريجات الفلسفية والتفسيرات الرمزية الباطنية ، فلم يهنوا ولم تفتر لهم همة.

وما على القارئ لكى يعرف هذه الحقيقة ، الا قراءة بعض صفحات التاريخ اذ يعثر على خيط طويل يمتد فيربط فى سلسلة متماسكة منذ الأوائل حتى عصرنا الحاضر ، وقف علماء السنّة بالمرصاد ، مبينين الانحرافات عن الاصول الاسلامية ، وربما لا تسمح لنا هذه الدراسة بالتوسع فى بيان ذلك الا بالقدر الذى يحقق توضيح الفكرة التى نحن بصددها ، وهى أن الإسلام ظل محفوظا فى الأصلين العظيمين: الكتاب والسنّة ، وأن تلقية وتطبيقه بمنهج السلف هو الذى حفظه حتى الآن وحارب علماؤه كل انحراف من شأنه تقويض أركان المجتمع الإسلامى ومن هنا عارضوا نفاة القدر بسبب إنكارهم لأصل من أصول الايمان المثبتة للعلم الالهى الازلى المطلق ، وأيضا حاربوا نزعة الجبرية التى ساهمت فى ركود الهمم وإضعاف الارادة الانسانية وتغليب سلبيتها على جانبها الايجابى النشط.

ووقف السلفيون إزاء تجزئة عقيدة الاسلام الى مجرّد دوائر عقلية - لدى المتكلمين والفلاسفة - أو عاطفة وتفسيرات وجدانية ذوقية لدى الصوفية وما جهود العلماء الكبار منذ عصر الصحابة والتابعين أمثال :

الحسن البصرى وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير. الى أمثال ابن حنبل

---

(١) ابن تيمية- النبوات ص١٥ نشر المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة ١٣٨٦هـ

وابن قتيبة والدارمي والشافعي ومـالك وابن خزيمة والشاطبى وابن تيمية وابن القيم والشوكانى وابن الوزير اليمانى وغيرهم . . . ما جهود هؤلاء العلماء الا عمل من أعمال المحافظة على الإسلام فى مصادره وعقيدته وعباداته ومعاملاته وانظمته وفقا لطريقة السلف ، فحـال ذلك دون إدخال أية تحريفات كما حدث فى اليهودية والنصرانية ، بل استطاعوا فضح كل المحاولات التى بذلت من هذا القبـيل ، وأصبحت مؤلفـاتهم معبّرة عن الاصالة لإظهـار المخالفين المبتـدعين وتوعية المسلمين من خروجهم عن المنهج الاسلامى الصحيح. فقد وقف الفقهاء والمحدثون فى وجه الدولة العباسية فى عنـفوان قوتها عندما رأوا ما يؤخذ على بعض خلفائها وولاتها فقد ضُرب أبو حنيفة على القضاء ، وأوذى الامام مالك لنشره الحديث (ليس على مستكره طلاق). عندما أُرغم المسلمون على حلف يمين الطلاق بمناسبة البيعة للمنصور.

وصمد الامام أحـمد صمودا جبارا إزاء مـحاولات تفسير الاسلام تـفسيرا كلاميا مخالفا لنصوصه ابان محّنة خلق القرآن.

وجاء ابـن تيمـية ليـجدد فهـم الإسلام على طريقـة السلف فى وقت يظن المتصفح لتاريخ عصره أن عقـول المسلمين قد توقفت وجمدت على آراء علماء الكلام والفلاسـفة وشطحات مع فـرق الصوفيـة ، وكان الجميع قـد نسوا أن القرآن الكريم مازال غضاً طريًا بين أيديهم ، وأن سنة الرسول ﷺ تغنيهم عن الدروب التى سلكوها.

ثم رأينا فى العصر الحديث كيف قام الإمام محمد بن عبد الوهاب للاطاحة بمظاهر الشرك والوثنيـة لتخليص عقيدة التـوحيد من جديد بعـد أن ران عليها دنس الجاهلـية مرة آخـرى ، وتابعتـه معظم الحركـات المعاصـرة فى العقـيدة ومسـالك الجهاد حـتى يمكن القول أن دعوة الامـام تشكل الأثر الحاسم فيـها جميعا ، لأنها بدأت بالقاعدة التى انطلق منها أى عقيدة التوحيد.

السلفية والحضارة الاسلامية:

إذا كانت الحـضارة الاسلامـية ما زالت قـائمة كـمجتـمعات حـية فى رأى توينبى، فما الذى يمنع تحـركها لقيادة العالم من جديد؟ انه وفـقا لنظريته عن عدم موت الحضـارة بالمعنى العضوى وانما تختفى وقد يكـون هذا الاختفاء لمدة

قرون ثم تعود للظهور كما يؤمن كبير مؤرخى العصر فى أعماقه بأن الحضارة الاغريقية هى السلف الحقيقى للحضارة الاوروبية الحديثة وهو يرى أن الحضارة الاغريقية قد اختفت ثم عادت ملامحها للظهور فى الحضارة الاوربية الحديثة. (١)

ولكن الحضارة الاسلامية - باعترافه - لم تمت عضويا بعكس الاغريقية ويرجع الفضل فى بقائها الى بقاء العقيدة وظلّ دور السلفيين باقيا فى إحياء عقيدة التوحيد وفهم الاوائل للاسلام لأن الاسلام - كما يذكر توينبى - قد اعاد توكيد وحدانية الله فى مقابل الضعف البادى فى تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية. (٢) واستمرت السلفية فى المحافظة على التوحيد فى جوهره النقى فمنعت تردى العقيدة الدينية الى صورة من صور الوثنية لان أية عقيدة دينية فى رأيه - تواجه التردى فى عبادة الأوثان وان العقيدة الدينية لتتعرض خاصة الى الانزلاق فى هذا المنحدر المؤدى الى جهنم بعد ما تكابد الوناً من الضربات القاصمة ، وخاصة اذا جاءتها من أناس يتمون اليها. (٣)

أما الضربات القاصمة فى تاريخنا ، فقد كان مصدرها أناس يدعون أنهم ينتمون الى الإسلام عامة أو التشيع خاصة ، بينما حملوا معاول الهدم ليغيروا معالمه من جذورها ، ولا يستطيع المسلم معرفة خدعهم وحيلهم الا بوقوفه على الطريقة السلفية فى فهم الاسلام والعمل به.

ولهذا فقد هتك علماء السلف أستارهم مع تعدد أجناسهم وكثرة فرقهم اذ تشمل (طائفة من المتفلسفة والقرامطة والباطنية والاسماعيلية ونحوهم ، كابن سينا وأمثاله وأصحاب رسائل اخوان الصفا ، والعبيديين الذين كانوا بمصر من الحاكمية وأشباههم ، وهؤلاء كانوا يتظاهرون بالتشيع وهم فى الباطن ملاحدة)(٤)

---

(١) لمعى المطيعى . . ارنولد توينبى ص ٢٩ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة العدد ١٤٨- ٢٢/٢/١٩٦٧م .

(٢) مختصر دراسة التاريخ ج٣ص١٦٤.

(٣) نفس المصدر ص٢١٠/٢١١ ترجمة فؤاد محمد شبل - جامعة الدول العربية ص ط١٩٦٤م.

(٤) ابن تيمية : كتاب الصفدية ج١ص١/٢ تحقيق د. محمد رشاد سالم ط شركة مطابع حنيفة بالرياض ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م.

وقد سبق أن قلنا إن مفهوم السلفية كمنهج فى الإسلام ، لا يعنى جيلا أو أجيالا مضت ولكن تتسع دائرته فتشمل الحاضر والمستقبل أيضا لانه لا يتعلق بالزمن والعصور لكن باتباع الطريقة الواحدة الثابتة حتى لو كان أصحابها افرادا قلائل ، فمن دواعى بقاء الحضارة الناجحة استطاعة القلة من الطلائع مجابهة التحديات. (1)

هدف السلفية وضوابطها :ـ

ان الضوابط والمقاييس الثابتة التى تحددها السلفية كفيلة بتخريج طلائع أفذاذ لقيادة الحضارة الاسلامية من جديد كلما خفت ضوؤها، وهم يشكلون باجتهاداتهم سلسلة متصلة من الجهود المبذولة والمحافظة على طريقة الاتباع ـ لا التقليد ومقوماتها الراسخة الجامعة بين اخلاص التوحيد لله تعالى وحده ، والايمان بالوحى طريقاً لمعرفة عالم الغيب، مع استسلام الانسان فى شئون حياته لما أمر به الله فى شئون حياته بواسطة خاتم الرسل والأنبياء ﷺ وتحرير العقول من الوثنيات وإصر الشرك لتتفرغ فيما يعود على الانسان بالنفع فى ميادين المعارف والعلوم ووسيلتها النظر والتجربة مع ثبات الفضائل الاخلاقية والآداب الانسانية.

وهنا تظهر لنا ضوابط السلفية فى نصوص كثيرة سنختار منها ما يشرح معنى الصراط المستقيم ، لاننا نلاحظ فى التصور الاسلامى أن أصوله وقواعده محددة وفق هذا الصراط المستقيم ، وهو المانع من التذبذب أو الارتداد أو الدوران فى حلقات مفرغة قد توحى بها اشكال أخرى غير الخط المستقيم كالخطوط المتعرجة أو أشكال الدوائر والمنحنيات مثلا اذا جاز لنا التشبيه بالاشكال الهندسية للتوضيح والبيان.

قال تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]

وفى شرح معنى هذه الآية نستدل بالحديث : عن جابر قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فخط خطا هكذا أمامه فقال (هذه سبيل الله.) وخطين عن

(1) كولن ولسون سقوط الحضارة ص١٥٠ . ترجمة أنيس ذكى حسن ط دار العلم للملايين ـ بيروت، نوفمبر سنة ١٩٥٩م.

يمينه وخطين عن شماله وقال (هذه سبل الشيطان) ثم وضع يده فى الخط الاوسط ثم تلا هذه الاية[1]

وفى حديث آخر سأل رجل ابن مسعود رضى الله عنه ، ما الصراط المستقيم؟ قال تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه فى الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد ، ثم رجال يدعون من مرّ بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلي النار، ومن أخذ علي الصراط انتهي به إلي الجنّة ثم قرأ ابن مسعود ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .[2]

وبعد أن عرفنا هذا الصراط ، فقد أصبح لزاما علينا أن نعرف السائرين على هداه وهذا ما أخبرنا به الرسول ﷺ قال (ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى ، الا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم انها تخلق من بعدهم خلوفا يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) رواه مسلم.

فاذا أضفنا اليه حديثا آخر أمر فيه الرسول ﷺ باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين ازداد الأمر وضوحاً.

قال العرباض بن سارية : صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل: يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد الينا؟ فقال (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وإياكم ومحدثات الامور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) رواه أبو داود .

وابقاءً على هذا العهد نستطيع أن نتحقق تاريخيا - وفى العصر الحاضر أيضا من الدور الذى أداه السلف ، فيتأكد لدينا موضوعية المنهج وتعلقه بمعايير وضوابط لا بعصور وأزمنة . فمن الثابت تاريخيا:

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج٢ص١٩٠ دار الفكر (٢) نفس المصدر ص ١٩١

١ـ وقوف السلف فى وجه الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والقدرية والجهمية وغيرها كما رأينا.

٢ـ شجب الاتجاه العقلى المغالي كالمعتزلة والفلاسفة وحتى أصحاب المواقف الوسط كالاشاعرة ، وهذا ما يعّبر عنه مواقف الفقهاء وعلماء الحديث أمثال ابن حنبل والدارمى والشافعى ومالك وغيرهم.

٣ـ وظهر أيضا كأوضح ما يكون فى مؤلفات ابن تيمية وابن القيم حيث أحاطا بعلوم وثقافة عصرهما ـ فى القرنين السابع والثامن الهجرى ووقفا بثبات ضد كل الاتجاهات التى استفحل خطرها فى دوائر علم الكلام والفلسفة والتصوف والتشيع.

٤ـ ظهرت ملامح متعددة للاتجاه السلفى فى العصر الحديث، وإن بدت فى جهود متفرقة لعلماء فى شتى العالم الاسلامى لا تجمعهم وحدة الأرض. والأمثلة على ذلك : إظهار التوحيد بواسطة الامام بن عبدالوهاب وتبعه آخرون فى الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق والمغرب والقارة الهندية واندونيسيا.

وكان دور السلفيين ظاهرا فى هذا الدور للمحافظة على نقاء التوحيد الاسلامى فى العقيدة والعبادة ، ثم الجهاد للتخلص من نير الاستعمار الغربى الصليبى.

وعندما ظهرت مشكلات جديدة بسبب ازدياد ضراوة الغزو الاستعمارى وفتح منافذ جديدة للتسلل منها والنيْل من عقيدة الاسلام ، كانت السلفية بارزة المعالم فى عدة مواقف ،نذكر منها:

١ـ معارضة دعوى التجديد وتطوير المفاهيم الدينية خضوعا للنظريات العلمية المعاصرة.

٢ـ نقد الفلسفة الحديثة الغربية والمعاصرة وشجبها بمنطق القرآن الكريم وعدم الخضوع لتصوراتها التى أخذت فى الزحف على العالم الاسلامى وأحدثت ثغرات فى الجبهة الاسلامية مستهدفةً النيل من أصالة العقيدة الاسلامية ووحدتها وشمولها، متبعةً فى ذلك شتى الأساليب كالفصل بين الدين والدولة أو العلمانية ، والنيل من السنّة وإحلال القوانين الوضعية بدل الشريعة

الإسلامية . وكلها حيل جديدة منبثقة مما مر بحضارة الغرب وتاريخه وفلسفاته وما أصاب مجتمعاته من تغييرات اقتصادية وسياسية تخصّه وحده.

وما دام الامر كذلك ، فان مما يستوقفنا ملاحظة طرق وأساليب اعداء الإسلام ، اذ تجتمع كلها ـ بالرغم من تعدد وسائلها للنيل من الاسلام عامة ، ومن الطريقة السلفية خاصة ، ثقافيا واجتماعيا وسياسيا.

ففى المجال الثقافى والتعليمى ، كان من دأب المستشرقين وما زال تعظيم الفرق المنشّقة من الجماعة أمثال الخوارج والشيعة ، وإثارة الأفكار المخالفة للسلفية كالمعتزلة والجبرية والقدرية وغيرها من المذاهب الكلامية والأفكار الفلسفية، مع تعظيم أصحابها وترويج أفكارهم ،و النيل من شيوخ السلف وعلمائهم ، أضف الى ذلك فرض دراسة الفلسفات الغربية قديمها وحديثها بكافة مذاهبها وأصحابها .لا بطريقة موضوعية ، ولكن بصورة قاتنةّ ، تُسحر النشء بالمغالاة قدحاً وتعظيماً ، وتخفى سلوكهم الشخصى ، لأن معرفته تجعل إزدراءهم أولى! (١)

وفى المجال الاجتماعى توسيع دائرة التصوف وتشجيع الفرق الصوفية وتحبيذ نشر البدع باسم الاسلام ، أو تكوين ما يسمى بفرق الإنشاد الدينى بصورة مشابهة للنصرانية كالموالد وبناء مساجد جديدة على الاضرحة ، وإلهاب مشاعر الجماهير العاطفية عن طريق التفسير الصوفى للدين وإخفاء منهج السلف فى فهم الاسلام وتطبيقه وتكثير الأقلام المتفرّة منه . وسياسيا ، دأب الاستعمار الغربى على تشجيع الفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة كما أسلفنا ، مع ابتداع أساليب جديدة كالبابية والبهائية والقاديانية ، ومدها بالعون المادى وتمكين إتباعها من ا لوصول الى مراكز التأثير ، الى جانب إذاعة آرائها والترويج لها تحت ستار الاسلام مع الاعتماد أيضا على الفرق التى مازالت تتوارث عقائدها الباطلة المنحرفة عن الاسلام منذ ظهورها فى المجتمعات الاسلامية كالباطنية الاسماعلية والنصيرية والدروز.

واذا كانت خصوم السلفية ينفّرون منها بدعوى منافاتها للتقدم فما هو التقدم؟

أصبح لفظ (التقدم) هو الشائع الآن وأخذت الغالبية تخضع للتفسير

(١) وقد أزاح الستار عن بعضهم الدكتور رشدى فكّار بكتابه توضح (نهاية عمالقة فى حضارة الغرب) . والكتاب بإعداد وتقديم سيد أبو دومة ، - ط مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

الذى يميل الـى وصف كل ما هو حديث ومـعاصر بالـتقدم ، وامـتدت هذه النزعة الى الأعمال الأدبية والفنية وحتى الكتابات ا لصحفية اليومية وامتد نفوذ الفكرة ليشمل كل شيء ، فلم يمـيز بين التـقدم فى دائرة العلوم التـجريبيـة وغيرها من ألوان الأنشطـة الإنسانية ، وتعتمـد على الفكرة الرائجة بالرغم من خطئها ـ كما ستثبت ـ إذ تصور المجتمعات البشرية وكأنها تتـقدم تلقائيا كلّما تقدّم بها الزمن، فتقترب بمرور الأعوام والقرون من درجات الرقى والتقدم.

ولبيـان خطأ الفكرة بالرغم من ذيوعـها وانتـشارها ، فـاننا سنناقشـها وفـقا للترتيب التالى : ـ

أولاً: إن الفكرة مرتبطة بالمراحل التاريخية التى مر بها الغرب ، اذ انتقل فى تطوره المادى من العصور القـديمة الى الوسطى فالحديثة والمعـاصرة وفى ضوء هذا التقـسيم ، واقتران كل مـرحلة بظروفها ، أصبح الغـربى عندما ينظر الى تاريخه ، يفزعـه المدلول السلفى، لأن مضمونه التـاريخى والحضارى يلقى فى قلبه الرعب فالسلفية فى نظر الانسان هناك عـموما تعوقه عن التقدم المادى فى الصناعة والزراعة وحقول العلوم والمعـارف المختلفة اذ تفجرت على أثر الثورة الصناعيـة واستخـدام المنهج التجريبى فى العلـوم ، بدلا من المنهج الصورى اليونانى ، وهو من نتاج سلف الحضـارة المعاصرة وكان منطقاً عقيـماً لم يتقدم بالعلم خطوة واحدة[1] ، كما تحـرمه السلفية هناك من العلمـانية التى فصلت بين الدين والدولة سياسـيا واجتماعيا طبـقا للشعار (دع ما لله لله ومـا لقيصر لقيصر) فـتحررت الشعوب بذلك من قيود رجال الكنيـسة التى ضيقت الخناق

---

(١) يقول راسل(فقد جـاء ـ يعنى ارسطو ـ فى ختام الفترة المتميـزة بالاصالة من تاريخ الفكر اليونانى ، ثم مضى بعد مـوته ألفا عام قبل أن ينجب العـالم فليسوفاً يمكن أن يدنو من مـكانته ، وفى أواخر هذه الحقبة الطويلة ، كـان نفوذه قد أو شك أن يبلغ للكنيسة من سلطان لا يقـبل الجدل ، وكان قد بات فى العالم وفى الفلسـفة على السواء عقـبة كؤوداً فى سبـيل التقدم ، فمنذ بداية القـرن السابع عشر، ترى كل خطوة تقريباً من خطوات التقدم العقلى مضطرة أن تبدأ بالهجوم على رأى من الآراء الأرسطية ، ولا يزال هذا يصدق على المنطق حتى يومنا هذا (تاريخ الفلسـفة الغربية جـ ١ صـ ٢٥٨ ترجمة د/ زكى نجيب محمود لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٦٧ م .)

ومن الناسب أيضاً الاسترشاد بتعريف « آلان تور » أستاذ علم الاجتماع بالسربون للتقدم وهو بالنص [ونحن حينما نقول اليوم : إن أوروبا أو الغرب عامة ـ بلغت درجات عليا من التقدم ، فإنما نقصد درجات عليا من التحـكم فى وسائل الإنتاج ، والصناعة ، ولا نقصد درجـات عليا من الحضارة ، فالحضارة هى الإنسـان قبل كل شيء ، والإنسان فى المجتمعات الأوروبية ، إنسان شقى مستعبد] من كتابة « نقد الحداثة سنة ١٩٨٩م نقلاً عن د/ أحمـد القديرى بكتابه (الإسلام وصراع الحضارات صـ ٨٩ كتاب الأمة » بقطر ذو الحجة سنة ١٤١٥هـ - مايو سنة ١٩٩٥م .

على حركة التقدم السياسية والاجتماعيةبل العلمية أيضاً (مثال : جاليليلو).

ففى الميدان العلمى ، انطلق العلماء يبتدعون سعيا وراء الحقائق التى تقدمها التجارب والاكتشافات العلمية ، فيأتى العلم كل يوم بالجديد المذهل بعد أن فك عن نفسه قيود تفسير رجال الكنيسة ، ولأن السلفية عنده كانت مضادة للفكر الفلسفى الذى أراد التحرر من علم اللاهوت بتقديم الحل لمشكلة التعارض بين الإيمان والعقل في الدين المسيحى.

والسلفية بعد كل ذلك بالمضمون الغربي تعيد الى الإذهان الصور المظلمة المقترنة بالظلم الاجتماعى والسيطرة السياسية فى عصورطغيان الملوك والأمراء ورجال الاقطاع فى القرون الوسطى.

ولكن نتوقف برهة لنتساءل : ماذا نريد بقولنا : التقدم؟ التقدم على ماذا؟ أو على من؟ أو بالنسبة لماذا؟ أو لمن يكون التأخر أو التقدم[1]

يجيب على هذا السؤال أحد المؤرخين الذين فسروا الحضارة بالتغيير وليس بالتقدم ، فان المجتمعات تتغير والتغير قد يكون تخلفا أو تقدما من نموذج ومثل أعلى ذلك لان في كيان الانسان مقومات ثابتة كالروح والغرائز والميول وحاجته الى المسكن والطعام والشراب والنوم والتناسل ، ولكن التغيير يصيب وسائله للوصول الى إشباع حاجته ، قد يتقدم فى استخدام وسائل أرقى ، ولكنه يستخدمها فى الحروب وميادين القتال والسطو والسرقة.

ولكن هل خفّف الانسان من أنانيته وأحقاده وظلمه وتعطشه لسفك الدماء وفرض سيطرته على الضعفاء؟ أم مازالت الحروب المستهدفة لإذلال الشعوب واستغلالها ونهب ثرواتها مستمرة فى القرن العشرين الميلادى؟ ألم تعجز الشعوب الصغيرة والضعيفة التى كانت مستعمَرة بالأمس أن تجد لها مكاناً فى عالم الأقوياء من الدول الكبرى؟ وفى ضوء ذلك كله هل التقدم حقيقى أم مجرد وهم وخيال؟

يجيبنا على هذا التساؤل «اری ألمر بارنز» بقوله :

(١) دكتور حسين مؤنس : الحضارة صفحة ٣٥٩.من سلسلة يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت عدد يناير ١٩٧٨م محرم/ صفر١٣٩٨هـ نقلاً عن كتاب (النظم والمؤسسات الاجتماعية).

(وعامة المؤرخين اليوم على أن ما يسمى بالتقدم أو مسيرة التاريخ والحضارة الى الأمام أو الى الأحسن انما هو وهم ، لأن غرائز الانسان واخلاقياته المركبة فى طبعه باقية كما هى، بل زادت حدة وضراوة و لا زال الوحش راقداً تحت جلد الانسان المتحضر ، بل إن لفظ « الوحش » فيه تجمّل فى وصف خلفية الانسان المتحضر اليوم ، فان الوحش يهاجم ليأكل أو ليدافع عن نفسه ، فيما عدا ذلك فهو ساكن أو وسنان ، أما الانسان فيدبر لابادة الألوف أو الملايين وهو راقد فى فراش وثير فى غرفة مكيفة الهواء تضم آخر مبتكرات التقدم المادى فأيهما الوحش؟

إن الانسان اليوم مخلوق ضعيف العقل فى يده قنبلة يمكن أن يحطم بها نفسه وغيره ، وهذا هو وضع الانسان القائد للحضارة والسياسة اليوم[1]

ويرى الفيلسوف الفرنسى (ليوتار) سقوط فكره الحتمية (سواء فى العلوم الطبيعية - كما عبرت عن ذلك فلسفة العلوم المعاصرة - أو فى التاريخ الانسانى فليست هناك كما أثبتت الأحداث - حتمية فى التطور التاريخى من مرحلة إلى مرحلة ، على العكس - كما تدعو إلى ذلك حركة ما بعد الحداثة. التاريخ الانسانى مفتوح على احتمالات متعددة ، ومن هنا رفض فكرة « التقدم » الكلاسيكية التى كانت مقصود تاريخ الإنسانية وفق نموذج خطى صاعد من الأدنى إلى الأعلى . على العكس ترى حركة ما بعد الحداثة ، أنه ليس هناك دليل على ذلك ، فالتاريخ الإنسانى قد يتقدم ولكنه قد يتراجع ، ونضرب لذلك مثلا على عجز فكرة التقدم ، بالحرب العالمية الأولى التى كانت بربرية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ،ثم ظهور النازية والفاشية ، واشتعال الحرب العالمية الثانية بكل ما انطوت عليه ، من فظائع وجرائم وحشية وخسائر مادية وبشرية)[2] وازاء كل ما نراه ماثلاً للعيان ، فاننا نميل الى الأخذ بالتفسير التاريخى القائل بأن التاريخ فى سيره يأخذ اتجاها منحدراً[3] مستندين فى

---

(١) النظم والموسسات الإجتماعية) تارى المر - نقلاً عن كتاب الحضارة) للدكتور حسين مؤنس ص :٣٥٩

(٢) الظرف ما بعد الحداثى : تقرير عن المعرفة ،نقلاً عن (الوعى التاريخى والثورة الكونية - حوار الحضارات فى عالم متغير ص ١٥٢ السيد يسين - مركز الدراسات السياسية الأستراتيجية - الأهرام القاهرة ١٩٩٥ م .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٦. ، أي إذا كانت الحضارة ترتقي بماديات الإنسان فإنها تنحدر بمعنوياته .

ذلك الى أن العصر الذهبى للانسانية تحقق فى عصر النبوة ثم الصحابة والتابعين ، وبعد القرون الثلاثة المفضلة أخذت مراحل الانحدار تزداد كلما افترق المسلمون شيعا واحزابا مبتعدين عن تلقى الاسلام حسبما فهمه السلف وطبقوه عقيدة وشريعة وأخلاقا.[1]

ويتضح من حديث نبوى أن الرسول ﷺ قد أمر فى هذه الأحوال بالصبر على ا لشدائد والمحن متنبئا بأنها ستزداد على مر الأعصار:

عن الزبير بن عدى قال: اتينا أنس بن مالك رضى الله عنه فشكونا اليه ما نلقى من الحجاج فقال : اصبروا فانه لا يأتى زمان الا والذى بعده شرٌ منه حتى تلقوا ربكم. سمعته من نبيكم ﷺ (رواه البخارى).

أما نظرية التقدم المرتبطة بدورة الزمن، فقد تعرضت لامتحان شديد فى العصر الحديث كرأى (ليوتار) ، وبعد توالى ظواهر تنبئ عن الأزمات فى العالم الغربى المتقدم مثل (انتشار الرذيلة واتساع نطاق استعمال المخدرات وضلال الشبان فى متاهات التمرد على المجتمع واتخاذ الغريب من الملابس والأزياء واتساع نطاق الجريمة المنظمة والارهاب) وما هى اذن فى الحقيقة الا خطوات مسرعة للتقدم نحو البربرية[2] وبالعكس ، اننا نرى أن المجتمع البدوى أكثر تقدماً اذا قيس بمقياس التقدم الاخلاقى ا لمعنوى برغم تضحيته بالأفرادأحياناً للمحافظة على كيانه العام من أى تحلل. وقد يوقفه هذا المسلك فى مكانه ثابتا ويمنعه من اجتياز خطوات نحو ما تسميه المجتمعات الغربية بالتقدم، ولكنه يحتفظ بالصلابة فى تكوينه وحيويته، ولهذا فهو فى العادة

---

(١) لخص الإمام أبو الحسن الندوي أسباب انحطاط العالم الإسلامى العوامل الآتية :

- انتقال الإمامة من الأكفاء إلى غير الإكفاء مع تحريفات الحياة الإسلامية الممثلة فى فصل الدين عن السياسة والنزعات الجاهلية فى رجال الحكومة وقلة الإحتفال بالعلوم العملية المفيدة والضلالات والبدع ، ولكنّ الدين ظل يحرّك الامال فى النفوس ، لأن الاسلام لم يزل طول حياته حيًا محفوظاً من التحريف والتبديل ، ولم يزل الكتاب والسنّة يبعثان فى نفوس القرّاء وثورة على الشرك والبدع ، وعلى الجهالة والضلالة ، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها ، ثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك.. ولم يزل ينهض بتأثيرهما ـ أى الكتاب والسنّة ـ رجال يقومون فى هذه الأمة على طريقة الأنبياء . . وهم مصداق الحديث الشريف (ولا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله)ـ رواه الحاكم فى المستدرك .

(٢) د/ حسين مؤنس .. الحضارة ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

أطول عمرا وأقل مرضا وتعاسة من الجمـاعة المتقدمة ، وأفراده فى العادة أوفر نصيبا من السعادة، اذا كانت السعادة هى الاطمئنان على النفس والأهل والمال وراحة الضمير وخلو البال .[1]

أن البدوى فى حيـاته المستقرة الهادئة أسـعد حالا من الغربى المتقـدم علميا الذى يجـرى وراء سـراب لن يصل اليه ، ذلـك لأن عالم الغـربى هو عـالم صيرورة ابدية أى حدوث فانقضاء. إنه يفـتقر الى الهدوء والاستقرار (والزمن عـدوّه الذى يجب أن ينظر اليه دائـما بمنظار الشك والريبـة)[2] واذا جـازت المقارنة بين هـذين النوعين من المجتـمعات فـلا يظن ظان أننا ندعو أو نحـبذ طريقة الحياة البدوية أو البدائية ، فإن سـعادة البشر الحقة فى رأينا تبلغ ذروتها فى الحيـاة الدنيا اذا ضمـمنا الى وسائل التقـدم العلمى تحقـيق درجات الرقى الأخلاقى بمدلوله الاسلامى.

ثانيا : لايصلح الزمن مقياسا للتقدم : يقول السير جيمس :

(ان قوانين الطبيعة الاساسية ، بقـدر ما نعرفها فى الوقت الحاضر لا تقول لنا لم يمر الزمن بلا انقطاع؟ بل هى مـستعدة لأن تجـيز احتمال بقـائه ثابتا لا يتحرك بقدر ما تجيز احتمال رجوعه القهقرى ، ذلك أن تقدم الزمن الى الأمام بلا انقطاع، و هو جـوهر الصلة بين العلة والمعلول ،إنّما هو شئ أضـفناه من تجاربنا الخاصة الى قوانين الطبيعة المحـققة ، ولسنا ندرى هل متأصل فى طبيعة الزمن وإن كانت نظرية النسـبية تهم أن تسم الرأى القـائل يتقدم الزمن تقـدما مسـتمـراً ، وبوجـود الصلة بين العلة والمعلول تهم أن تسم هذا الرأى بميـسم الوهم والخداع)[3]

وبعد هذا التـعريف المستـفيض للزمن ، أيحق للانسان أن يتـخذه مقيـاسا للتقدم أو التأخيّر؟ .

إننا نمضى مـعـه رغـمـاً عنّا،فكيـف نميـز بين خطواتنا ونـحن نلازمـه ويلازمنا؟.

---

(1) المرجع السابق ص ٣٥٦.

(2) مـحمد اسـد .. الطريق إلى الاسلام ص ١٣٩ ، ترجمة عـفيف البعلبكى ط دار العـلم للملايين - بيروت مارس سنة ١٩٧٦م.

(3) الكون الغامض ص ٣٣ - سير جيمس جينز ، ترجمة عـبدالحميـد مرسى ومراجعـة د / مصطفى مشرفة المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤٢م.

ثم إنه لابد أن تدور عجلته ليتحـول الحاضرإلى أمس ، وقد قيل :كل غد صائر امساً.

اننا فى عصر ثبت أن الزمن إضافى وأن فروق الحال والمستقبل فى الاشياء لا تكون طبقا لحقيقة تلك الأشياء ، بل طبقا لمشاهداتنا المحدودة [1] واذا اعتمدنا على القـرآن الكريم لا ستطلاع الآيات التى تتناول الزمن ترى من مـا وردت الآيات تارة للإشارة الى أن الحياة الدنيا مـؤقتة وليست دائمة ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة:٣٦] .

أو الزمن الـكونى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة:٤-٥]

ويذكر بعض الآيات كعلامات للاهتداء ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾[الإسراء:١٢] . ولمعرفة مـواقيت الصلاة والزكاة والصيام والحج .

وقد وردت فى الحـديث .... «وانما الأعمـال بخواتيـمها والليـل والنهار مطيتـان فأحسـنوا السير إلى الآخـرة » المنذرى الترغـيب والترهيب [ص٤ ، ص٩٦] وقد رواه الاصبهانى من رواية ثابت بن محمد الكونى العابد. وما أدق التشـبيه فى الحـديث لحثّ الانسان على أخـذ نصيبـه من العبادات والأعـمال للترقى فى الكمالات الانسانيـة وصولاً الى جنة الخلد. وفى حديث يوم النحر قال الرسـول ﷺ : [إن الزمان قـد استـدار كهـيئتـه يوم خلق الله السـموات والأرض ، السنة أثنا عـشر شهـرا منها أربعـة حرم] الحديـث. وفى الحديث تحديد لشهور العام والتنصيص على أربعة حرم (متفق عليه)

أما الزمن بمدلوله التاريخى، فقد أقامه القرآن على أساس ثابت سماه (سنّة الله) تحذيراً وإنذاراً لبنى آدم، فدمار الأمم له تبريره الموضوعى، والظلم مثلا

(١) وحيـد الدين خان الإسلام والعصر الحديث ص ٣٧ ط المختار الاسلامى القاهرة ١٢٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

سبب للانتقام الإلهى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

وكذلك بالنسبة للأفراد ، فقارون وفرعون وهامان وغيرهم (نماذج بشرية عرضها القرآن موضحاً أعمالهم ومبيناً نهاية ماحصدوه تنفيذاً لنفس السّنة أو القانون الآلهى)(١) ومهما كانت الأزمنة أو العصور التى تظهر فيها الأمم أو الأفراد ، لأن سّنة الله لا تتبدل ولا تتحوّل.(٢)

ثالثا: التقدم فى الإسلام:

اذا استبعدنا لفظ « التقدم » وما شابهه من الفاظ كالتطوير والثورية والتجديد وما اليها بسبب تزعزع مدلولاتها وذبذبة مفاهيمها، جاز لنا استبدالها بما أقره الإسلام وحثّ عليه من اكتساب الفضائل ونبذ الرذائل لتمكين الانسان من تحقيق مقام الخلافة فى الأرض ، مجدداً الضوابط والمعايير التى لا تتغير أو تتبدل بتغيير الزمان والمكان، وتضمنّت الآيات القرآنية الأوامر والنواهى واحتوت على الوعد والوعيد متوجهةً بالخطاب الى فطرة الانسان تُحسّن العدل والصدق والعلم والإحسان وتُقبّح أضدادها. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء:٥٨] وقال عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠] ويقتضى الوقوف على بعض معانى التقدم أن نستعرض آيات من الكتاب الكريم ونبذه من الأحاديث النبوية بادئين بالأول:

(أ) فى الكتاب : ها هو كتاب الله بين أيدينا وكذلك السنّة كلاهما

---

(١) محمد كمال جعفر (فى الدين المقارن) ص ١٤ ط دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠م .

(٢) ويقول الدكتور أحمد القديرى (اما أهل الجاهلية ، المتجهون كطبق « الدش» ، أو كعبّاد الشمس نحو الغرب ، فالحجة لديهم ، أننا يجب أن ندخل إلى عصرنا ، ونصبح عصريين . وفى الحقيقة تم مسخ مصطلح العصرية من أصله اللغوى الحضارى كنتيجة راهنة لمسار متشعب وبطىء ، إلى مفهوم تغطية النموذج الغربى « العلمانى » وإسباغ العصرية العالمية عليه ، كنوع من إكسابه الشرعية ، وإفراده بالريادة) صـ ١٣١ من كتاب « دار الإسلام وصراع الحضارات »كتاب الأمة -قطر ذو الحجة سنة ١٤١٥ هـ - مايو سنة ١٩٩٥م .

يوضحّان مراتب أحسن النماذج الانسانية ويحثّان على الإرتقاء والسمو لاكتساب الفضائل التى بدونها لا يصبح الانسان انسانا : قال عز وجل ﴿ وسارعوا الى مغفرة من ربكم ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ ومدح قوما بقوله ﴿ يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ والنظر فى القرآن الحكيم يدلنا فيما يرى الراغب الاصفهانى على درجات الارتقاء الاخلاقى ويحثنا على التسامى، ففى طرق الارتقاء ودرجاته يذكرها على الترتيب الآتى:

فأولها : أن يرتدع الانسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك مقاومتها وذلك أول درجة التائبين المطيعين .

ثانيها : أن يقوم بالعبادات المفروضة عليه ويسارع فيها بقدر وسعه وتلك درجة الصالحين .

وثالثها : أن يتحرى بعمله الحقيقى تعاطى الحسنات من غير تلفت منه الى المحظورات بمجاهدة هواه وإماته شهواته المحرّمة وتلك منزلة الشهداء،

ورابعها : أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمّة برضى، ظاهراً وباطناً بقضاء الله تعالى، فلا يتزعزع تحت حُكمه ولا يتسخّط شيئاً من أمره، ويعلم أن الله تعالى أوْلى به من نفسه، وتلك درجة الصدّيقين. وهذه المنازل الأربعة المرادة بقوله تعالى ﴿ ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾[1]

أما عن مهاوى الانحدار ودركاته، فقد وردت آيات كثيرة تُحذّر من انحدار الانسان وسقوطه الى مهاوى الرذائل: فمنها ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾.

ويوضح لنا الاصفهانى ترتيبا تنازليا لدركات الانحدار والارتداء :فأولها : - الكسل عن تحرى الخيرات ، ويورثه ذلك الزيغ لقوله تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وثانيها : - الغباوة وهى ترك النظر ونقص العمل فيورّثه ذلك رينا على قلبه لقوله ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

(١) الراغب الاصفهانى : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٦٨ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ط كتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

وثالثها : ـ الوقاحة وهى أن يرتكب الباطل ويراه فى صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة القلب ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ .

ورابعها : ـ الانهماك فى الباطل ، وهو أن يستحسنه فيحبه فيورّثه ذلك ختماً على قلبه وقفلاً عليه كما قال تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ وكما قال ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾. فحق الانسان أن يرعى نفسه فى الابتداء ولا يرخص فى إرتكاب الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر[1] .

(ب) السنّة : لو احصينا أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ التى يحث فيها على الارتقاء والتقدم لما كفتنا كتب ومجلدات ، ولكن يلاحظ المتتبع أياها أن الرسول ـ ﷺ ـ يتجه فى ترغيبه وترهيبه الى الانسان على الحقيقة أى نفسه وروحه وقلبه لانها أساس غذاء القلب والروح وشحذ الارادة وتهذيب الاخلاق، وتجعلها فى المرتبة الأولى، قبل مظاهر الحضارة المادية من إقامة مصانع وانشاء مدن وشق طرق وبناء مدارس وجامعات و مستشفيات.

وربما خيل للكثيرين من المسلمين أنفسهم أن السنة تعنى فقط بالجانب التشريعى فى الإسلام من تحليل وتحريم واباحة ، أو الارشاد الى أنواع العبادات وكيفية اقامتها وأوقاتها وشروطها ومراتبها، ولكن الحقيقة أن هناك جانبا كبيرا فى السنة القولية والعملية متضمنة إرشادات وتوجيهات فى الحياة الإنسانية دقيقها وجليلها ، فى صورتيها الفردية والاجتماعية . فأرشد بذلك الى منارات التقدم الحقيقى لكى يهتدى بها الانسان .

وكان الرسول ـ ﷺ وسيظل القدوة فيها كلها حتى أحبه أصحابه رضوان الله عليهم أكثر من حبهم لأنفسهم، وسيبقى كذلك للمسلمين ما دامت الحياة الدنيا.

قال عروة بن مسعود يصف أحوال الصحابة بقوله : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى، والله ما رأيت ملكاً

---

(١) نفسه صـ ٦٤.

قط يعظمّه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ﷺ[1]

وما أحوج البشرية عامة والمسلمين خاصة الى الاسترشاد بسنّته فى دروب الحياة المتشعبة إذ لم يترك الدنيا الا أن تحدث وأوضح كل شئ.

ففى حديث جامع : عن معاذ قال : أخذ بيدى رسول الله ﷺ نمشى ثم قال : يا معاذ ، أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ، ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ورحم اليتيم وحفظ الجوار وكظم الغيظ ولين الكلام وبذل السلام ولزوم الامام والتفقه من القرآن ، وحب الآخرة والجزع من الحساب ، وقصر الأمل، وحسن العمل ، وأنهاك أن تشتم مسلما ، أو تصدّق كاذبا ، أو تعصى إماما عادلا ، وأن تفسد فى الأرض .يا معاذ ، أذكر الله عند كل شجر وحجر، وأحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية [2]

والاحاديث النبوية فى الحث على مكارم الأخلاق ، والرقى الانسانى وتقدمه، لا حد لها ولا حصر ، ولكن حسبى أن سقت مثالاً بما يناسب هذا المبحث فى غرضه وحجمه .

***

(1) عبد الله بن محمد عبد الوهاب سيرة الرسولﷺ ص ٣٠٦ط السلفية بمصر ١٣٩٧هـ.

(2) المنذرى ـ ج٤ص١٠٧ / ١٠٨ الترغيب والترهيب. وقال رواه البيهقى فى كتاب الزهد ، ضبط احاديثه وعلق عليه مصطفى محمد عمارة ط الحلبى ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٨م.

الفصل الرابع

النسق الإسلامي في مسائل الألوهية والعالم والإنسان عند «ابن تيمية»

***

النسق الإسلامى فى مسائل الألوهية والعالم والإنسان
عند ابن تيمية

حياته:

تقى الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبدالله بن تيمية الحرانى ، ولد فى يوم الاثنين عاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ ١٢٦٣م فى حران، ولم يقم بها زمنا طويلا اذا اضطر أبوه الى الهجرة منها الى دمشق سنة ٦٦٧هـ خوفا من التتار.

عكف أحمد على دراسة العلوم الدينية ، ومكّنته مواهبه العقلية من النبوغ مبكرا، اذ أتم دراسته ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، حتى قيل إنه شرع فى الجمع والتأليف من ذلك الوقت . ولما توفى والده سنة ٦٨١ هـ ، أخذ يدرس الفقه الحنبلى مكانه ، وانتهت إليه رياسة هذا المذهب وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، ولكنه سرعان ما اتخذ لنفسه طريق الاجتهاد وذاعت شهرته لخوضه فى علوم عصره ، وتفوقه فيها على العلماء المتخصصين ، فقد برع فى علوم اللغه والتفسير والسنن والآثار وعلم الكلام وفرقه المتعددة .

ومرّ فى حياته بأزمات ومحن فرضتها عليه أحوال عصره الثقافية والاجتماعية والسياسية للمسلمين ، وزادها شدة تمسكة بآرائه المدعمة بالأدلة النقلية والعقلية، ونقده العنيف للانحرافات التى رأى من واجبه التصدى لها.

وبدأ اصطدامه بعلماء عصره حينما ورد عليه سؤال من حماة سنة ٦٩٨هـ لبيان تفسيره لآيات وأحاديث الصفات كقوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وكحديث الرسول ﷺ [إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن] وغيرها وكانت إجابته بالعقيدة المعروفة « بالحموية الكبرى » فبدأ يجابه صنوفا من المحن والاضطهادات ألقت به فى غيابة السجن أكثر من مرة

، لأنه أراد الارتقاء بالمسلمين الى مستوى السلف عقيدةً وعبادةً وتعاملاً وأخلاقاً، ولكن حال بينه وبينهم تراكمات متعاقبة تكّونت على مّر الإعصار بسبب عوامل خارجية وذاتية:

فمن ثقافات أجنبية ، الى تخريجات فقهية ، وانحرافات صوفية ، واتجاهات عقلية كلامية وفلسفية غالية.

وأخذ يجابه خصومه متسلحا بنفس أسلحتهم ، فلجأ الى علم الكلام والفلسفة ليقرع الحجة بالحجة، وكتب فى الفقه وأصوله منفردا بفتاوى مؤسسة على اجتهاداته الخاصة ورد على المناطقة مظهرا تهافت أسس المنطق الأرسططاليسى ، ودخل عدة معارك مع فرق الصوفية وشيوخهم ابتداء من الشيخ نصر المنبجى ، ذى السطوة لدى السلطان بيبرس الجاشنكير ، الى الرفاعية الذين خدعوا الجماهير بحيلهم الباطلة ، كما كان محارباً بالسيف أيضا فى صفوف الجيش لصد غزو التتار.

وظل ينتقل من معركة الى معركة ، الى أن وافاه أجله وهو محبوس بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ ـ ١٣٢٨م

***

منهجه :

ربما كانت أفضل طريقة نتناول بها أفكار ابن تيمية ـ وان لم تكن هى الطريقة الوحيدة هى أ ن نتناولها عن طريق توضيح أبرز معالم منهجه ، وربما كانت قضية المنهج هى القضية الكبرى التى عاش لها، فان النقطة الرئيسية المتكررة فى معظم أبحاثه هى أن الحجة العقلية الصريحة لا تناقض الحجة الشرعية الصحيحة.

ويكشف اسم أحد كتبه الأخيرة ومن أهمها بعنوان : (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) على دلالة ما يقصده ، وهو يقصد بالمعقول البديهات العقلية والأوليات الكلية ، وعلى هذا النحو يمضى مؤكداً صحة رأيه ، موجها الأنظار الى الأصول العقلية فى القرآن والحديث لبيان غناها الذاتى فى البرهنة على صحة كافة القضايا التى تعرض لبحثها.

وقد يكون مسبوقا بهذا الرأى بواسطة ابن رشد الفيلسوف الذى حاول اثبات مطابقة الفلسفة للشريعة بكتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) لكن المنحى المنطقى الذى ينحوه استدلال ابن تيمية جد مختلف من آراء ابن رشد الشارح لفلسفة أرسطوطاليس ، بينما كان الشيخ خصما عنيدًا للفيلسوف اليونانى لا سيما فى مبحثى الالهيات والمنطق.

واذا افترضنا تأثير ابن رشد ، فإن الجذور الأساسية لفكر ابن تيمية ينبغى التماسها فى الاتجاه السلفى السابق عليه ، ممثلا فى نظريات الصحابة والتابعين، ثم الفقهاء والمحدثين أمثال أبى حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل والبخارى والدارمى وابن قتيبة ، وتنظير أفكاره فى القوالب الكلامية والفلسفية والمنطقية، متابعةً منه لمناهج عصره فى الجدل والحجاج العقلى ومعارضةً لمنهج التأويل الكلامى الذى يرجّح التفسير العقلى إن ظهر تعارض بين النقل والعقل، حيث يرى أن هذا التعارض مصدره وهم خاطئ إمّا بسبب عدم العلم بالنص أو خطأ الفهم، وثمة سبب آخر لا يسلّم بصحته منذ البداية وهى تلك الأصول الكلامية التى يبنون عليها نتائجها كما سيأتي.

واذا طالعنا كتابه المشار اليه آنفا نراه يدور حول إثبات أن دلالة القرآن شرعية عقلية، فهى شرعية لان الشرع دل عليها وأرشد اليها ، وعقلية لانها تعلم صحتها بالمعقول الصريح الذى يعرفه الناس بفطرهم التى فطروا عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين، واختلاف المختلفين اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد ومثل كون الجسم الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد. وتظهر دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب إذا يقول تعالى ﴿ **ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ وقوله عزوجل: ﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ والأمثال هى أقيسة عقلية .

ولم يكل ابن تيمية من التنبيه على أن فى القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين كمسائل التوحيد والصفات ، والقدر والنبوّة والمعاد ودلائل هذه المسائل كما يقرر أنه ليس لأحد الخروج عن ا لشريعة فى شئ من أموره، بل

كل ما يصلح له فهو فى الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته وغيرها ولعل سبب الخروج على هذه القاعدة الشاملة يرجع الى تجزئة الطوائف والفرق الاسلامية المختلفة للشريعة.

وعلى هذا النحو فقدجعل المتكلمون بإزاء الشرعيات العقليات أو الكلاميات وجعل الصوفية بإزائها الذوقيات والحقائق، والفلاسفة جعلوا بإزاء الشريعة الفلسفة، والملوك جعلوا بإزاء الشريعة السياسة، وأما الفقهاء والعامة فيخرجون عما هو عندهم من الشريعة الى بعض هذه الأمور أو يجعلون بإزائها العادة أو المذهب أو الرأى .وظلّ الشيخ أميناً فى التزامه بمنهجه، اذ مهما تشعبت أبحاثه وأجهدت الدارس وراءها بسبب كثرتها وامتدادها الى آفاق متعددة، فان مما يخفف من أثر جهده العثور على التناسق والوحدة فى النتاج العقلى بين التفسيرات الميتافيزيقية والأخلاقية والسياسية:

إنه يؤكد أن كل ما عدا الله باطل، وأن حركة العالم حركة خضوع وسجود لخالقها، وأن الله هو المحبوب وحده، الغنى غنّى ذاتياً ، بينما مخلوقاته كلها فقيرة فقراً ذاتياً، فان الحقيقة المعتبرة فى كل برهان ودليل هى اللزوم، وبها يعرف أن كل ما فى الوجود آية لله ، فانه مفتقر اليه إذ لابد له من محدث، كما قال تعالى ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾؟ ولكى تتحقق سعادة الانسان فلابد من أن يؤله ربه وحده، فان أطيب ما فى الدنيا معرفته، وأطيب ما فى الآخرة مشاهدته.

كما ينبغى أن يستهدف الراعى والرعية إصلاح أمور الدين والدنيا ، وإلا فسدت هذه وتلك، فصلاح الخلق وسعادتهم فى أن يكون الله هو معبودهم الذى تنتهى إليه محبتهم وإرادتهم ، ويكون ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات، كما قال تعالي﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾.

الالهيات:

تنوعت المسائل التى دار حولها بحث ابن تيمية فى الالهيات :

فقد تحدث فى أدلة وجود الله، وإثبات صفاته وأفعاله، وخلقه وإحداثه للعالم، وعنايته وتدبيره له. ، وإن ظهرت عناصر أفكاره متشابكة الاأنه يلتزم

بمنهجه الذى سقناه آنفا. فمن حيث الأدلة على اثبات وجود الله سبحانه وتعالي، فانه يرى أن المعلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه، وإما غير واجب بنفسه وإما قديم أزلى وإما حادث كائن بعد أن لم يكن، وإما مخلوق مفتقر الى خالق وإما غير مخلوق ولا مفتقر الى خالق، وإما فقير الى ما سواه وإما غنى عما سواه، ويستخلص من هذه المقدمات أن غير الواجب بنفسه لا يكون الا بالواجب بنفسه، والحادث لا يكون لا بقديم، والمخلوقات لا تكون الا بخالق، والفقير لا يكون الا بغنى عنه، فيصل الى ما يراه لازماً لما تقدّم حيث لزم عدم إجتماع النقيضين أى وجود موجود واجب بنفسه، قديم أزلي، خالق، غنى عما سواه، وما سواه بخلاف ذلك.

ونراه يستخدم هذا التقسيم على نحو يطابق التقسيم التقليدى عند الفلاسفة والمتكلمين، ثم ينتقل لاثبات الصفات الالهية بنفس المنهج وموجز القول أنه يثبت الثنائية فى الوجود:

قديم وحادث، غني وفقير، خالق ومخلوق مع اتفاقهما فى كون كل منهما شيئا ثابتا. ولكن لا يماثل أحدهما الآخر فى حقيقته، اذ لو تماثلا للزم اجتماع النقيضين، وهو منتف بصريح العقل والشرع، فإن الله تعالى مختصٌ بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته، والعبد لا يشاركه فى شئ من ذلك، والعبد أيضا مختص بوجوده وعلمه وقدرته، والله تعالى منزّه عن مشاركة العبد فى خصائصه.

ومن أهم المسائل التى ثار الجدل حولها بين ابن تيمية وخصومه هى صفات الله تعالى وأفعاله، فقد اختلف أهل الفرق بين نفيها كجهم بن صفوان والمعتزلة أو الغلو فى إثباتها لدرجة التشبيه والتجسيم كالهشامية والكّرامية وقلة من الحنابلة الذين يصفهم ابن تيمية بأنهم أتوا من المنكرات والإمام أحمد برئ منهم، أو اتخاذ الموقف الوسط، كما فعل الأشاعرة الذين أثبتوا لله سبحانه وتعالى سبع صفات هي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر، وفرّقوا بين صفات الذآت وصفات الفعل، وعدّوا صفات الفعل كالنزول والإتيان والخلق والرضا والغضب وغيرها من الحوادث التى ينبغى

تنزيه الله عنها .

ويعترض الشيخ على طريقة المتكلمين، اد أنهم أقاموا حجتهم على محاولة اثبات الصانع باثبات حدوث الأجسام، الذى لا يثبت حدوثها الا بحدوث ما يقوم بها من الصفات والأفعال، فالجأهم هذا الى نفى صفات الله تعالى وأفعاله القائمة به.

ويستند منهج المتكلمين بعامة الى الأصل الآتي:

إن الأجسام لا تخلو من الحوادث، ومالا يخلو من الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث، لأن مالا يخلو عنها ولا يسبقها يكون معها أو بعدها، وما كان مع الحوادث أو بعدها فهو حادث . وبعضهم يقول إن الحوادث لا تدوم ، بل يمتنع حوادث لا أول لها، ومنهم من يمنع أيضا وجود حوادث لا آخر لها، كما يقول ذلك الجهم بن صفوان وأبو الهذيل العلاّف.

ودعّم ابن تيمية كعادته موقفه الناقد للأصول الكلامية بأدلة شرعية وعقلية:

ولنبدأ بالعقلية فنقول: لا يسلم بصحة هذا الأصل لأنه فاسد مخالف للعقل والشرع كما أنهم لم يميّزوا بين جنس ونوع الحوادث اذ الجنس لا يقال له حادث ولا محدث، وأيضاً فإن صفات الله ثابته فلا تسمى أعراضاً.

ويستخلص من مذاهب المتكلمين إلزامات يؤدى اليها سياق مذاهبهم، فإن التوحيد عند المعتزلة وهو فى حقيقته نفى الصفات الالهية لان الصفات أعراض عندهم قول باطل، لأنهم يسلمّون بأن الله حي،عليم،قدير، ومن المعلوم أن حياً بلا حياة ، وعالماً بلا علم ، وقديراً بلا قدرة يدل على موقف معاند للعقل والشرع واللغة، لأن الصفات إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، لاغيره .

وكذلك الأمر بالنسبة للأشاعرة الذين أثبتوا صفات الذات وفروا من إثبات الأفعال ، إذا لا يعقل أن يكون الموصوف حياً ، عالماً ، قادراً متكلماً رحيماً ، بحياة قامت بغيره، ولا بعلم وقدرة قامت بغيره،ولا بكلام ورحمة وإرادة قامت بغيره .

ويلزمهم جميعاً أن الله لم يكن قادراً على الفعل فى الأزل فصار قادراً، أو

كان الفعل ممتنعاً عليه فصار ممكناً من غير تجدد شيء أصلاً أوجب القدرة والإمكان، وفى هذا القول إلزام بأن ينقلب الشيء من الامتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى ؛ وهو ما تجزم العقول ببطلانه ، مع ما فيه من وصف الله بالعجز وتجدد القدرة من غير سبب . كما تطاول عليهم الدهرية فتساءلوا : كيف يحدث الحادث بلا سبب حادث ؟

الصحيح إذن أنه لا يمكن إثبات الصانع وإحداث المحدثات إلا بإثبات صفات الله تعالى وأفعاله ، ولا تُقطع الدهرية من الفلاسفة وغيرهم قطعاً باتاً عقلياً إلا على طريقة السلف أهل الإثبات للأسماء والصفات والأفعال الإلهية ونفى الكيفية عنها ، لأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذّات ، وإثبات الذّات إثبات وجود ، لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات .

ويثبت إبن تيمية أن البرهان على تنزيه الله تعالى قائم على أصلين قياس الأولى، فإن كل صفة متحققة فى المخلوقات ، فإن الله سبحانه أولى بثبوتها له ، وهو قياس عقلى برهانى مستمد من القرآن لإثبات أصول فى العلم الإلهى . والأصل الثانى : أن الله تعالى مستحق لصفات الكمال ، وليس له مثل فى شيء من صفات الكمال، فهو منزّه عن النقص مطلقاً ، ومنزّه فى الكمال أن يكون له مثل ، وقد دل على ذلك قوله ﴿قل هو الله أحد﴾ فتبيّن أنه أحد صمد ، واسمه الأحد يتضمن نفى المثل ، واسمه الصمد يتضمن جميع صفات الكمال .

أما ردّه على الفلاسفة القائلين بقدم العالم ، فإنه يذكر أن الفعل والخلق والإبداع والصنع ونحو ذلك لا يُعقل إلا مع تصور حدوث المفعول ، وأيضاً فإن الجمع بين كون الشيء مفعولاً وبين كونه قديماً أزلياً مقارناً فى الزمان جمع بين المتناقضين ، لأن التقدم والتأخر المعروف هو التقدم والتأخر بالزمان ، فإن قبلُ وبعدُ ونحو ذلك معانيها لازمة للتقدم والتأخر الزمنى ، وأما التقدم بالعلية أو بالذات مع المقارنة فى الزمان ، فهذا لا يُعقل ألبتة ولا له مثال مطابق فى الوجود ، بل هو مجرد تخيّل لا حقيقة له .

وحينئذ فإذا كان الرب هو الأول كالمتقدّم على ما سواه كان كل شيء متأخراً

عنه ، وأن قُدّر أنه لم يزل فاعلا ، فكل فعل معين ومفعول معين هو متأخر عنه . وإذا قيل : الزمان مقدار الحركة ، فليس هو مقدار حركة معينة للشمس أو الفلك ، بل الزمان المطلق مقدار الحركة المطلقة . . وقد كان قبل أن يخلق السموات والأرض والشمس والقمر حركات وأزمنة وبعد أن يقيم الله القيامة فتذهب الشمس والقمر تكون فى الجنة حركات كما قال تعالى : ﴿**ولهم رزقهم فيها بكرةً و عشياً**﴾ . فالرب تعالى إذن لم يزل متكلماً بمشيئة ، فعالاً بمشيئة ، كان مقدار كلامه وفعله الذى لم يزل هو الوقت الذى يحدث فيه ما يحدث من مفعولاته ، وهو سبحانه متقدّم على كل ما سواه التقدم الحقيقى المعقول .

٢ـ العالم :

يعنى بالعالم اصطلاحاً كل ما سوى الله . وردا على رأى أرسطو ، فإن ابن تيمية يذهب إلى أن العقل الصريح لا يدل على قدم شيء بعينه من العالم، وإنما يدل على أن الرب لم يزل فاعلاً،وحينئذ فإذا قُدّر أنه لم يزل يخلق شيئاً بعد شيء ، كان كل ما سواه مخلوقاً محدثاً مسبوقاً بالعدم ، ولم يكن من العالم شيء قديم . وهذا التقدير ليس مع الفلاسفة ما يبطله ، مستشهداً باتفاق أهل الملل على أن الله خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السماوات وهو الدخان الذى هو البخار ، كما قال ﴿**ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين**﴾ . وهذا الدخان هو بخار الماء الذى كان حينئذ موجوداً ، كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين وكما عليه أهل الكتاب . وتلك الأيام لم تكن مقدار حركة هذه الشمس وهذا الفلك ، فإن هذا مما خلق فى تلك الأيام ، بل تلك الأيام مقدّرة بحركة أخري،ثم يبين امتناع أن يكون مع الله شيء من المبدعات قديم بقدمه .

والنقطة الرئيسية فى هذا الجزء هى قضية صدور العالم عن الله ، إذ اعترض على تفسير الفلاسفة بأنه علة تامة فى الأزل فيجب أن يقارنها ، كما بين خطأ المتكلمين الذين ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، وأن القادر

المختار يرجّح أحد مقدوريه على الآخـر بلا مرجح ، وأن الحوادث لها ابتداء ، وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث .

ولإظهار تهـافت الرأى الفلسفى ، فـإنه يوضح المقصود بأن المـؤثر يستلزم أثره: ويراُد به شيئان ، قد يُراد به أن يكون معه فى الزمان ـ كما يقوله الدهرية فى قدم الأفلاك ـ وقد يُراد به أن يكون عقـبة ، وعلى هذا فيمتنع أن يكون فى العالم شيء قديم .

وكان عليه تخطئـة المتكلمين أيضاً فى اعتقادهــم أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، ثم يحـدث الأثر من غيـر سبب اقتـضى حدوثه ،لأن الذى يدل عـليه المعقـول الصريح ، ويقرّ به عامـة العقلاء ، ودلّ عليه الكتـاب والسنّة وأقوال السلف والأئمة ، أن المؤثر التام يستلزم وقـوع أثره عقب تأثره التام ـ لا يقترن به ولا يتراخى عنـه ـ كما إذا طلّقت المرأة فطلّقت ، وكـسر الإناء فـانكسر ، وقطع الحبل فانقطع ، فوقع الطلاق والكسر والقطع،ليس مقارناً لنفس التطليق والتكسيـر والقطع ، بحيث يكون مـعه ، ولا هوأيضاً مـتراخ عنه ، بل يكن عقبه متصـلاً به ، وقد يقال هو معه ومفارق له باعتبار أنه يكون عـقبه متصلاً به ، كمـا يقال هو بعده متـأخر عنه باعتـبار أنه إنما يكون عقب التأثيـر التام. ولهذا قال تعالى ﴿إنما أمـره إذا أراد شيـئاً أن يقـول له كن فـيكون﴾ ، فهو سبحـانه يكون ما يشاء تكوينه ، فـإذا كّونه كان عقب تكوينه متـصلاً به ، لا يكون مع تكوينه فى الزمان ، ولا يكون مـتراخياً عن تكوينه بينهــما فصل فى الزمان، بل يكون متصلاً بتكوينه كاتصال أجزاء الحركة والزمان بعضها ببعض.

كمـا خالف رأى الفـلاسفـة فى الجسم المكون من هيـولى وصورة ، ورأى المتكلمين القائلين بالجـوهر الفرد ، إذ يرى أن الجسم شيء واحد فـى نفسه ، ينقلب من حال إلى حـال ،كالنطفة والعلقة والمضغـة والعظام وهكذا ،وهو ما أجمع عليه العقـلاء وما اتفق عليه الأطباء ، فالله سبحانه يقلبـها ويحيلها من جسم إلى جسم . ونقد الأشاعرة لأنهم لا يثبتون فى المخلوقات قوى الطبائع، ويرون أن الله يفعل عند الأسـباب لا بها ، فإن مؤدى مذهـبهم إبطال حكمة الله فى خلقه ، وأنه لم يجعل فى العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ، ولا فى النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بهـا ، ويلخّص رأيه فى العبارة الجامعة

الآتية (إن الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلّية قدح فى الشرع).

ولنا أن نتوقف عند الصياغة التى صاغ بها آراءه مفسراً لحركة العالم حيث مزج فيها بين دليل الافتقار القرآنى ، والتعليل الغائى الأرسطاليسى ليوضح في إحكام نتائج ميتافيزيقية وأخلاقية : فالمخلوقات مفتقرة إلى الخالق لأن الفقر وصف لازم لها دائما فهى لا تزال مفتقرة إليه ، والإمكان والحدوث دليلان على الافتقار ، وفقر الأشياء إلى خالقها لازم لها لا يحتاج إلى علة ، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر فى اتصافه بالغنى إلى علة . وهذا من معانى «الصمد» وهو الى الذى يفتقر إليه كل شيء ، ويستغنى عن كل شيء ، بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ومن جهة الاهيتة . فما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له ، لا يصلح ، ولا ينفع ولا يدوم . وهذا تحقيق قوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ، فلو لم يخلق شيئاً بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء . وكل الأعمال إن لم تكن لأجله ـ فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته ـ وإلا كانت أعمالاً فاسدة ، فإن الحركات تفتقر إلى العلة الغائية ، كما افتقرت إلى العلة الفاعلية ، بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلاً ، ولولا ذلك لم يفعل ، فلولا أنه المعبود لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات بل كان العالم يفسد ، وهذا معنى قوله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ولم يقل لعدمتا.

ولقد رأيناه غير مقتنع بعقيدة المتكلمين أن الحوادث لها ابتداء ، لأنها تمس القدرة الإلهية المطلقة ، وسياقها يؤدى إلى أن الرب لم يزل معطلاً لا يفعل شيئاً بمشيئته وقدرته ، ثم صار يفعل فأراد أن يدحض رأيهم ، أو بعبارة أخري، فإن مضمون دليلهم يلزمهم أن يكون الرب كان غير قادر ثم صار قادراً من غير تجدد سبب يوجب كونه قادراً ، فأدى بالجهمّ بن صفوان وأبى الهذيل العلاّف إلى الزعم بامتناع الحوادث فى المستقبل أيضاً ، فصرح الأول بفناء الجنة والنار ، واضطر الثانى إلى القول بفناء حركاتهما . وحجتهم على امتناع دوام الحوادث فى الماضى هو أنه كان فى الأزل قادراً على ما لم يزل .

ويستند ابن تيمية فى حجته العقلية إلى أن القادر لا يكون قادراً مع كون المقدور ممتنعاً ، بل القدرة على الممتنع ممتنعة ، وإنما يكون قادراً على ما يمكنه أن يفعله ، فإذا كان لم يزل قادراً ،فلم يزل يمكنه أن يفعل . وأيضاً فالأزل معناه عدم الأوّلية ، ليس الأزل شيئاً محدوداً ، فالقول بأنه لم يزل قادراً بمنزلة القول هو قادر دائماً ، وكونه قادراً وصف دائم لا ابتداء له

ويستخلص من هذا أن الله تعالى يقدر بلا ريب على خلق غير هذا العالم، وعلى إبداع غيره إلى مالا يتناهى كثرة ،ويقدر على عين منا يفعله ومن الواضح أنه يميز بين أنواع الحوادث و أجناسها ، وبين أعيانها و أشخاصها ، فالأولى قديمة والثانية حادثة . وقد أيقن هنا أنه ربما أسئ فهمه ، فصرح بأنه (إذا ظن الظان أن هذا يقتضى قدم شيء معه كان من فساد تصوّره ، فإنه إذا كان خالق كل شيء فكل ما سواه مخلوق مسبوق بالعدم ، فليس مع شيء قديم بقدمه . وإذا قيل لم يزل يخلق كان هنا لم يزل يخلق مخلوقا بعد مخلوق كما لا يزال فى الأبد يخلق مخلوقاً بعد مخلوق).

٣ـ الإنسان :

ليس من سبيل إلى إ نكار تلك الحقيقة البارزة فى أفكار ابن تيمية ، ونعنى بها استناده إلى ميزان الشرع ودليل العقل . وينبغى أن نذكر أنه فى نظرته إلى الإنسان ، طبّق منهجه بدقة أيضاً ، من تحليله لمكونات الإنسان المادية ـ أى الجسد ـ ووصفه للنفس وعلاقتها بالبدن ، ومشكلة الإرادة الإنسانية بين الجبر والاختيار ، ومبحث المعرفة ، وأخيراً الاتجاه الأخلاقى لنظرياته المصطبغة بالصبغة العقلية المثالية .

لقد دعّم نظريته بالدليل القرآنى فى قوله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ ، وقوله ﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ ، فأصل الإنسان التراب وفصله الماء ، فتظهر القدرة الإلهية التى تبهر العقول ، وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيل الموجودات من شيء لآخر ، فإذا خلق الله الإنسان من المنى ، فالمنى استحال وصار علقة ، والعلقة استحالت وصارت مضغة والمضغة استحالت

إلى عظام وغير عظام . فالإنسان مخلوق ، خلقه الله ، جواهره وأعراضه كلها من المني، من مادة استحالت ، فهي ليست مادة باقية أحدث الله فيها صورة الإنسان كما يذكر الفلاسفة . ويرد على الجهمية القائلين بأن الله أحدث صورة عرضية .

وعن الموت والبعث ، يذكر ابن تيمية أنه عند إفناء الإنسان إذا مات وصار تراباً فنى وعدم ، كما يفنى سائر ما على الأرض لقوله تعالى ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ ، ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء ويخلقه خلقاً جديداً ، ولكن للنشأة الثانية أحكام وصفات ليست للأولى ، فمعرفة الإنسان بالخلق الأول وما يخلقه من بنى آدم وغيرهم من الحيوان ، وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار ، وما يخلقه من السحاب والمطر ، وغير ذلك هو أصل لمعرفته بالخلق والبعث وبالمبدأ والمعاد.

على أن نظريته فى النفس الإنسانية مستمدة من الشرع ، فيرى أن الروح مدّبرة للبدن ، وهى التى تفارقه بالموت بعد أن نفخت فيه عند بدء الحياة، ويستخدم الآيات والأحاديث التى تشير إلى الروح والنفس بمعنى واحد كمترادفين ، ولكن التفرقة تظهر عندما يسمى النفس باعتبارها تدبّر البدن ، ويسمى روحاً باعتبار لطفه ، فإن لفظ (الروح) يقتضى اللطف ولهذا تسمى الريح روحاً .

وهناك من المصطلحات اللغوية ما يشير إلى النفس بمعانى متعددة ، فقد يراد بنفس الشيء ذاته ، وقد يقال بلفظ النفس الدم الذى يكون فى الحيوان كما يقول الفقهاء (ما له نفس سائله وما ليس له نفس سائلة) ، ويراد بالنفس عند كثير من المتأخرين صفاتها المذمومة ، وقد يقصد بها هواها وأفعالها .

وأيضاً يقال النفوس ثلاثة أنواع : وهى النفس الأمّارة بالسوء التى يغلب عليها اتّباع هواها بفعل الذنوب والمعاصى ، والنفس اللوّامة وهى التى تذنب وتتوب ، لأنها تلوم صاحبها على الذنوب ولأنها تتلوّم أى تتردد بين الخير والشر ، والنفس المطمئنة وهى التى تحب الخير والحسنات وتبغض الشر والسيئات .

وهذه هى النظرة الدينية للنفس ، فهى نفس واحدة ، ولكن الصفات الآنفة صفات وأحوال لذات واحدة ، وهذا أمر يتحقق الإنسان من صحته فى نفسه، ومن هنا يظهر خطأ بعض الفلاسفة فى اعتبارها ثلاثة أعيان قائمة بأنفسها . ولكن لا يعلم كيفية النفس لأن طبيعتها ليست من جنس العناصر كالماء والهواء والنار والتراب .

أما علاقة النفس بالبدن ومكانها فيه، فإننا لا نعلم مسكنها من الجسد ، إذ لا اختصاص للروح بشيء منه ، بل هى سارية فى الجسد كما تسرى الحياة التى هى عرض فى جميع البدن ، فإن الحياة مشروطة بالروح ، فإذا كانت الروح فى الجسد كان فيه حياة ، وإذا فارقته الروح فارقته الحياة .

ويصح أن نعده من التجريبيين أيضاً ، لأن القضايا المعينة المخصوصة أبده للعقل من القضايا الكلية ، كالقول بأن كل محدَث ، لابد له من محدث ، ولكن يصح أيضاً التساؤل عن معنى العقل عنده للتمييز بينه وبين الآراء التى دارت حول العقل فى الفلسفة الإسلامية تأثراً بالفكر اليونانى ، مع بيان صلة العقل بالقلب فى نظرية المعرفة .

ويُستخلص من آراء علماء المسلمين أن اسم العقل إنما هو صفة وهو الذى يسمى عرضاً قائماً بالعقل ، وعلى هذا دل القرآن فى قوله تعالى **﴿لعلكم تعقلون﴾** وقوله **﴿قدبينا الآيات إن كنتم تعقلون﴾** فيدل على أن العقل مصدر عقل يعقل عقلاً . وتظهر نزعة ابن تيمية الديناميــة فى اشتراطه العلم والعمل معاً ، فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم ، بل إنما يسمى به العلم الذى يعمل به ، والعمل بالعلم ، مفسراً بذلك قوله تعالى **﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير﴾** .

وتتم عملية المعرفة عنده نتيجة امتزاج قوتى القلب والعقل . وقبل شرح الكيفية التى تتم بها ، فإنه يتعرض أولاً لشرح المقصود بالقلب . إذ يراد به المضغة الصنوبرية فى الجانب الأيسر من البدن ، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً كقلب اللوزة والجوزة ، وإذا أريد بالقلب هذا ، فالعقل متعلق بدماغه أيضاً ، ولهذا قيل إن العقل فى الدماغ ، كما يقوله كثير من الأطباء

ونقل ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل .

ولما كان العقل يطلق على العلم والعمل كما بينّا ، فالعلم والعمل الاختيارى أصله الإرادة ، وأصل الإرادة فى القلب ، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصوّر المراد ، فلابد أن يكون القلب متصوراً فيكون منه هذا وهذا ، ويبتدئ ذلك من الدماغ . لكن مبدأ الفكر والنظر فى الدماغ ، ومبدأ الإرادة فى القلب، أى أن الاعتقاد والإرادة يتعاونان .

ويرى أن طرق العلم هى الحس والسمع والبصر والعقل، مشترطا اقتران الحس الباطن أو الظاهر بالعقل، للتمييز بين المحسوس وغيره ، وإلا دخل فيه من الأخطاء من جنس ما يدخل على النائم أو المريض ممن يحكم بمجرد الحس الذى لا عقل معه .

أما عن تعريفه الأخلاقى للإنسان ، فإنه حى حارث همام متحرك بالإرادة، مشيراً بالهم إلى النية والقصد ، وبالحرث إلى العمل . وتتحقق السعادة الكاملة بطريقين : أحدهما بصلة العبد بربه والثانية بصلته بالناس ، فإن تحقق سعادة الإنسان فى كمال افتقاره إلى ربه واحتياجه إليه ، فالخلق كلهم محتاجون إلى خالقهم، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى ، كما قال تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ . وقال ﴿ **إذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض** ﴾ ، وفى الآية الأخرى ﴿ **كان يؤوساً** ﴾ والطريق الثانى للسعادة تتحقق فى معاملة الخلق إذا كان التعامل معهم لله ،أى رجاء الثواب من الله ، وخوفاً منه ، لا خوفاً منهم، ولا انتظاراً لمكافأتهم .

ويؤيد ابن تيمية قول أهل السنة والجماعة أن العبد له قدرة وإرادة وفعل وهو فاعل حقيقة ، والله خلق ذلك كله كما هو خالق كل شيء، وفعل العبد حادث ممكن فيدخل فى عموم خلق الله للحوادث . ولكنه يثبت حرية الإرادة الإنسانية . ونراه هنا يميل إلى الاستعانة بالعامل الوجدانى الذى يحسه الإنسان من نفسه ،وخير ما يعبر عنه الموقف الإنسانى المتأرجح بين الإقرار بالحرية وإنكارها قول بعض العلماء (أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ،

أى مذهب وافق هواك تمذهبت به؟!) . وله أبحـاث كثيرة للبـرهنة على حرية الانسان ومسئولية عن أفعاله يتناول فيها التمييز بين حكم الله الكوني، وحكمه الديني. أو إرادتة الكونية والدينية . ففى الأولي مثل قوله تعالى ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ ، وفى الثانيه كقوله تعالى ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ولهذا الرأى صلاته واضحة باتجاهاته الأخلاقية ، فإن للأفعال تأثيرها على النفس الإنسانية، فتكسبها صفات محمودة وصفات مذمومه، بخلاف لون الإنسان وطوله وعرضه، فإنها لا تكسبه ذلك، فالعلم النافع والعمل الصالح كالصلاة والزكاة وصدق الحديث وإخلاص العمل لله وأمثال ذلك ، تورث القلب صفات محمودة ، ففعل الحسنة له آثار محمودة فى النفس وفى الخارج ، وبالعكس السيئات والذنوب ، وأعظمها الكبْر والحسد التى بهما عصى الله أولاً ، فإن إبليس استكبر وحسد آدم ، وكذلك ابن آدم الذى قتل أخاه حسداً . والكبر والحسد ينافيان الإسلام ، لأن الإسلام هو الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره فهومشرك به ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر كحال فرعون وملأه، ومن أسلم وجهه لله حنيفاً فهو المسلم الذى على ملة إبراهيم عليه السلام الذى قال له ربه ﴿أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ .

***


الملاحق

ملحق رقم (١)

روجيه جارودي يوجه رسالة خاصة ل(الشعب) (المصرية)

اتهامي بالتشكيك في السنّة وأبي حنيفة والشافعي كذب وافتراء (١)

خص المفكر الإسلامي الفرنسي الكبير روجيه جارودي جريدة الشعب برسالة ترد علي حملة الافتراءات التي تعرض لها في بعض وسائل الإعلام العربي التي تشكك في موقفه من السنّة الشريفة والفقيهين الجليلين أبي حنيفة والشافعي. . . وربط جارودي بين هذه الحملة والمحاكمة التي يتعرض لها للمرة الثانية في إطار حملة صهيونية تتهمه بالعداء للسامية . . وقد علمت «الشعب» أن حكم المحكمة الفرنسية ق صدر بالفعل بسجن جارودي لمدة عام . . . ولكن ما زال أمامه الاستئناف . . وفيما يلي رسالة روجيه جارودي . .[الله وحده هو الحاكم].

بسم الله الرحمن الرحيم

في ١٩ مارس تسلمت من المحكمة شكوي ضدي متضمنة تهمة وتهديداً بالسجن لمدة عام ، وذلك إثر صدور كتابي الأخير «الخرافات التأسيسية للسياسة الإسرائيلية» الذي أظهرت فيه أنه لا النصوص التوراتية ولا اضطهادات هتلر يمكن أن تبرر سرقة أراضي الفلسطينيين وطردهم وتعرضهم للاضطهاد والقمع الدموي المسلط عليهم ،كما لا يمكن أن تبرر خطة تفتيت وتفكيك الدول العربية وهي جوهر السياسة الإسرائيلية كما عرضتها المجلة الصهيونية «كيفونيم» وهي الخطة التي سبق أن نشرتها في كتابي وقمت بدحضها .

بعد ذلك بأيام جلب لي إخوة من فلسطين صحيفتين هما «المجلة»و «عكاظ» وصحفاً خليجية أخري تتخللها صور لي . اعتقدت بسذاجة في بادىء الأمر أن المقالات تدافع عني ، لكنني اكتشفت العكس إنها تعمل علي سلب مصداقيتي بأكثر الحجج كذباً وتزييفاً. إن هذه الحملة التي أتعرض لها وثيقة الصلة بموقفي من حرب الخليج، ورفضي التدخل الأجنبي في شئون الأمة الإسلامية .

---

(١) الشعب ١٢ من ذي الحجة ١٤١٦هـ ، ٣٠ أبريل١٩٩٦م

ينتقدون ويؤاخذون بافتراء علي أنني أزرع الشك بحق أبي حنيفة والشافعي في حين أنني أقدمهما بشكل خاص كمثال يحتذي في جميع كتبي ومقالاتي . إن هذين الفقيهين العبقريين اللذين نجحا ، انطلاقا من مبادئ خالدة في «الشريعة» تؤكّد كما أكّد القرآن أن (الله وحده المالك ، والله وحده الحاكم ، والله وحده العالم) نجحا أيضاً في أن يقيما فقهاً يستجيب لحاجة بلدهما وزمنهما ، وأصبحا بالنسبة إلينا نموذجاً لهذا التفكير والتأمل الذي يدعونا إليه القرآن بلا انقطاع ، أي إقامة فقه للقرن العشرين انطلاقاً من الشريعة الخالدة والثابتة .

في حين أن انتقاداتي تعمل علي كشف إسلام البعض الذي يدعي فرض القرن العاشر علي القرن العشرين ، يتهمونني برفض السّنة وهذه كذبة أخري لأنني ألومهم علي الاستخدام السياسي للسّنة .

عندما حطّم السادات الوحدة العربية ، وذهب إلي الكنيست الصهيوني ومن ثم إلي أمريكا وإلي كامب ديفيد ليوقع سلاماً منفصلاً مع إسرائيل ، جاءت فتوي من الأزهر تحيي خطوته وتضفي عليها الشرعية الدينية.

وعندما نظم المستعمرون الغربيون القدماء وزعيمتهم أمريكا ، في شرم الشيخ ،استعراضاً كبيراً أي تجمعاً لرؤساء الدول لمحاربة الإرهاب ، وذلك بالتضامن مع أعتي وأسوأ الإرهابيين أي الحكام الإسرائيليين وعين الهدف وهو إيران ، بانتظار أن يأتي دور ليبيا ، نري نفس الحكام العرب يسارعون لتلبية نداء سيدهم الأمريكي ويذهبون ليذلوا أنفسهم الواحد بعد الآخر في تل أبيب أمام الحكام الإسرائيليين (عدا ثلاثة من زعماء المسلمين).

هل احتج العلماء الذين يتهمونني ضد قمة شرم الشيخ ؟ هل دعوا إلي اجتماع دولي للتضامن مع الفلسطينيين بعد المذبحة الإرهابية ضد المسلمين ، أثناء تأديتهم الصلاة ، علي يد الإسرائيليين ؟ كلا لقد صمتوا كلياً .

هل ندّدوا بالمنظمة العالمية للتجارة (الجات سابقاً) . وبصندوق النقد الدولي الذي تفرض تعليماته علي العالم الثالث الخضوع والتبعية ؟كلا،لأن سادتهم الأمريكيين لم يسمحوا لهم بذلك .

إن شاغلهم الأساسي هو تشويه أقـوال جارودي ، وردي الوحيد عليهم هو الكتاب الذي ألخص فيه تاريخ الإسلام وهـو كتاب «عظمة وانتكاس الإسلام ـ ١٩٩٦م» مذكراً بإيماني بالإسـلام ومحاربتي الحكام السيـاسيين الذين يدنّسونه. إن البلدان العربية التي يحكمها مثل هؤلاء الحكام الذين في خدمتهم هذه الفئة من رجال الدين هم المـزيفون للإسلام الذي لن يعـثر علي عظمـته وإشعـاعه العالمي إلا عندما تطرد الشعـوب هؤلاء الحكام وحماتهم الأمريكان إلي بلدهم حاملين معهم في حـقائبهم الحكام غير المؤهلين وغيـر الجديرين والعلماء الذين تعاونوا معهم .

حينذاك سيـستعيد الإسلام حـيويته وعافيتـه التي كانت له في القرن الأول الهجري وقواه التجديدية الدائمة المتـمثلة في إنعاش وإحياء العلوم الدينية . . . علوم الغزالي العظـيم وكذلك إعادة بناء الفكر الديني للإسـلام لمحمد إقـبال، وسادتي المبجلين كالأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وابن باديس ومالك بن نبي وأخي المخلص حـتي الموت محمود أبو سـعود ، الذي أحاول كتلميذ مـخلص أن أواصل أثره ـ في نفس الوقت ـ في الأندلس حيث أسست في قرطبـة عاصمـة الخلافة في الغـرب وفي برج كالاهورا ، المتحف الوحـيد المكرس في إسبـانيا للتـذكير بالوجـه الحقيـقي للإسلام الأندلسي ضـد أعدائه والذي يزوره كل عام ١٠٠٠٠٠ شخص وحـيث أناضل في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وجميع البلدان الغربية ضد اللوبي الصهيوني وأشجب الجرائم وأفضحها .

هكذا أعتـقد أنني أؤدي واجـبي كمسـلم مخلص للقرآن الـذي يدعونا بلا توقف لخدمة الله الذي لم ينقطع عن خلق وإعادة خلق العالم .

إن الوفاء للإسـلام لا يعني الاحتفـاظ بالرماد بل يحمل الشـعلة ونقلها من جيل لآخر.] .

***

ملحق رقم (٢)

الأهرام تتعرض للهجوم من صحيفة فرنسية بسبب مقالاتها عن «جارودى»

هاجمت صحيفة «ليبراسيون» الفرنسية «الأهرام» بسبب الفصول التى نشرتها من كتاب الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى الصادر مؤخراً بعنوان «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» وكذلك المقالات المنشورة فيها حول مضمون الكتاب . ووصفت فى مقال عنوانه «الأهرام وهذيان الصحافة المصرية» نشرته أمس الأول - تغطية «الأهرام» لما سمته «مسألة جارودى» بأنها تغطية مشبوهة.

ونقلت «ليبراسيون» عن شريف الشوباشى مدير مكتب «الأهرام» فى باريس قوله فى رسائله للأهرام : « من الممكن فى فرنسا أن تنتقد كل شىء وأن تتحكم فى كل شىء، وهناك من يشككون فى وجود الله والرسل والأديان، وهناك من يشنون الهجوم على السيد المسيح ويوجهون النقد العنيف الذى قارب السب الشخصى لرئيس الجمهورية، لكن هناك موضوعًا يرقى إلى مستوى الحقيقة المطلقة التى لا يحق لأحد أن يناقشها وهو عملية اضطهاد اليهود على يد النازية ومقتل ٦ملايين يهوى وفقاً للتاريخ الرسمى للحرب العالمية الثانية». واعتبرت«ليبراسيون» أن تغطية الأهرام والصحافة المصرية عمومًا للقضية تهبط إلى مستوى الصغائر، ووجهت اتهامًا ضمنيًا للأهرام بمعاداة اليهود.

تعليق الأهرام :

من المحزن أن تنزلق صحيفة مثل «ليبراسيون» إلى هذا المستوى المتدنى وأن تضرب عرض الحائط بأخلاقيات المهنة التى تقضى بعدم التهجم على الصحف الزميلة بهذا الأسلوب.

وقد نشرت صحيفة ليبراسيون نفسها من قبل مقالات متجنية وغير منصفة عن مصر تفوح منها رائحة التعاطف مع الجماعات المتطرفة التى تتمسح بالدين الإسلامى لممارسة العنف والإرهاب، لكن «الأهرام» كانت تربأ بنفسها دائمًا عن الرد على هذه المهاترات.

ومن الواضح أن ما أثار ثائرة ليبراسيون هو أن «الأهرام» أعطت جارودي منبراً للدفاع عن نفسه، ونقلت عنها وكالات الأنباء العالميةما نشرته ، وأسهم

هذا فى فك الحصار المفروض على جارودى في وسائل الإعلام الفرنسية.

و«الأهرام» وهى قلعة للدفاع عن مصالح الشعب العربى لم تتعود المهاترات، وليس من نهجها معاداة اليهود، ولا تقر ما يسمونه «بمعاداة السامية» كما هو معروف للجميع ، ولكنها أيضًا لا تقر أن اضطهاد اليهود في الحرب العالمية الثانية يبيح لإسرائيل قتل الأبرياء واحتلال أراضى الغير بالقوة وتحدى الإرادة الدولية التى تطالبها بإنهاء هذا الاحتلال متمثلة فى قرارات الأمم المتحدة.

* * *

ملحق رقم (٣)

بيان لجنة الدفاع عن «جارودي»

في هذه الأيام يتعرض المفكر الفرنسي ـ الإسلامي «رجاد جارودي» لحملة شرسة من آلة الإرهاب الفكري الصهيوني ، بسبب كتابه الأخير : الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية » .

ونحن إذ نعقد العزم علي تشكيل هذه اللجنة ، نعلن أننا نقف مع المفكر الكبير ضد جميع أشكال الإرهاب التي يتعرض لها ، وندين محاولة محاكمته بسبب الأراء التي نشرها في كتابه ، ونهيب بمنظمات حقوق الإنسان أن تقف بجانبه ، موضحة مخالفة هذه المحاولات لمبادئ حقوق الإنسان التي تكفل له حق التفكير والتعبير عن آرائه ومعتقداته بشكل علمي رصين ، كما فعل في كتابه الأخير :

ونحن نؤمن بأن أي نقاط للخلاف بين جارودي وبعض علماء الإسلام ، موضوع لحوار جاد وموضوعي وصبور ، بدلاً من أن ينفي طرف الطرف الآخر .

وتدعو اللجنة جميع المفكرين والمثقفين إلي مساندة جارودي وإرسال البرقيات إليه ، ومخاطبة الجهات الرسمية الفرنسية وجميع وسائل الإعلام الدولية ، من أجل وقف الحملة التي تهاجم جارودي ، وبيان ما يهم المجتمع الدولي من أفكاره ، وحقيقة المزاعم الصهيونية في الفترة الحالية ، ودحض المغالطات التاريخية التي يستندون إليها في تبرير دعواهم .

كما تدعو اللجنة جميع وسائل الإعلام العربية إلي وقف جميع أشكال العداء ضد المفكر الكبير ، ومساندته في قضيته العادلة التي هي قضيتنا . كما تهيب اللجنة بالحقوقيين العرب ، الانضمام إلي اللجنة من أجل تشكيل وفد يكون علي استعداد للسفر إلي فرنسا ، والدفاع عن جارودي في حال محاكمته، لأن الوجود الحقوقي العربي في ساحة القضاء الفرنسي سيكون له أثر قوي في دعم المفكر الكبير ، وفي كسب الرأي العام الفرنسي والأوروبي وفي جعل قضيته قضية دولية ، بدلاً من التعتيم الإعلامي عليها ،

وتدعو اللجنة المثقفين والمفكرين في كل مكان في العالم ، إلي شن حملة

من أجل وقف هذه الحملات الصهيونية الظالمة التي آن الأوان لكي تتوقف وأن تعرف الشعوب حقيقة ما يحدث وماهية ما حدث.

كما تعلن اللجنه أنها لن تكتفي بالدفاع عن «جارودي» وإنما ستقوم بالدفاع ومساندة جميع المفكرين والباحثين والمبدعين، الذين يتعرضون للقمع الفكري الصهيوني في أية بقعة في العالم وأنها منذ هذه اللحظة قد وضعت نفسها علي أهبة الاستعداد لمواجهة آلة الإرهاب الفكري - الإعلامي الغربية الصهيونية، لحماية الباحثين والدارسين والمفكرين الذين يتصدون للمزاعم التاريخية والدينية والسياسية التي تروج لها الصهيونية.[1]

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) جريدة الشعب في ١٢ صفرسنة ١٤١٧هـ، ٢٨ يونيو سنة ١٩٩٦م.
وقع علي هذا البيان د. عبد الوهاب السيري، د. محمد عمارة، د. حسين عبد القادر، د. علاء الأسواني، د. محمد عباس، أ. مجدي أحمد حسين، د. نجلاء القليوبي، د. رفعت سيد أحمد، د. أحمد شوقي، منال عجرمة، أ. خالد السيد

الفهرس

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

- عرض الكتاب لحياة جارودي وأطوار فلسفته وقيامه بتصحيح التفسير التاريخي المنحاز للغرب وتقويمه بمنهج نقدي.
- كما عرف بالحضارة الإسلامية عند جارودي وبيان فضائلها علي حضارة أوربا، في سياق الأخذ والعطاء فيما سماه (حوار الحضارات)، ومرشحًا قيم الإسلام لرأب الصدع في حضارة الغرب.
- وهكذا يصدق وصف الأستاذ أحمد بهجت لحياة هذا بأنها هدية موحية لأبناء الشرق المهزوم روحيًا أمام الغرب.
- وناقش الكتاب أيضاً فكرتين لا يسع المسلم موافقة الفيلسوف الكبير عليهما وهما:
  - عقيدة الإبراهيمية أو وحدة الأديان.
  - فكرته عن (السلفية) فى الاسلام.
- ويعتبر الكتاب تقويماً عادلاً لفكر وموقف جارودي وشهادة حق أمام المدَّعين لحرية الرأي والتفكير والاعتقاد وحقوق الإنسان ويعتبر الكتاب شهادة للتاريخ تسترشد به الأجيال وليعلموا أن الكيد والحقد على الإسلام لا يتوقف في كل زمان ومكان.

المؤلف في سطور

- الأستاذ الدكتور/ مصطفى حلمي..
- ولد بمدينة الإسكندرية..
- حاصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة الإسكندرية (قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية) بمرتبة الشرف الأولي عام ١٩٧١م.
- عيِّن في كلية دار العلوم قسم الفلسفة الإسلامية في مايو ١٩٧٢م. وتدرج حتى أصبح أستاذاً ورئيساً للقسم من عام ١٩٨٢م حتى ١٩٨٧م.
- أعير للتدريس بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد عام ١٩٨٧م.
- أعير للتدريس بجامعة أم القرى بمكة المكرمة من عام ١٩٨٧م حتي ١٩٩٢م.
- حائز على جائزة الملك فيصل العالمية في [الدراسات الإسلامية] عام ١٣٩٥ هـ - ١٩٨٥ عن مؤلفاته الآتية:

١- منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين.

٢- قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي.

٣- السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية.

- حالياً أستاذ متفرغ بكلية دار العلوم جا. القـــاهرة.

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

المركز الرئيسي : ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت: ٤٩٠١٩١٤-٤٩٠٧٩٩٨- فاكس ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة :٣٨٣٢٧٤٧